الفصل السابع

رؤيا بلا إله

« الأشياء تنهار، والمركز لا يستطيع الصمود، والفوضى أطلقت على العالم. من المؤكد أن هناك رؤيا فى الأفق »

ويليام بتلر ييتس «المجىء الثانى»

هناك رؤيا خاصة تعتمل فى المشاهد الأخيرة من «على الشاطئ» وهو فيلم سينمائى يرجع لسنة ١٩٥٩م يتخيل نشوب حرب نووية لا ينجو منها أحد. فيحدث تبادل لإطلاق القنابل الذرية تنجم عنه سحابة سامة من النشاط الإشعاعى تلف الأرض وتقتل فى طريقها الكائنات الحية جميعًا فى صمت، ويبقى آخر الناجين من البشر فى انتظار المصير نفسه فى أستراليا البعيدة. كل إنسان رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً على الأرض ــ بما فى ذلك جريجورى بك فى دور قائد غواصة نووية أمريكية، وأفاجاردنر فى دور حبيبته الأسترالية ـ ينتظرون أن يهلكوا بالإشعاع فى موت بطىء رهيب مؤكد ما لم يجدوا سبيلاً للانتحار قبل الموت البطىء.

قد يبدو الفيلم لأول وهلة مجرد تنويعة أخرى على التيمة الرؤيوية التى يمكن إدراكها فيما لا يحصى من كتب وأفلام أنتجت فى أواخر الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين تتناول نهاية العالم. وسبب الدمار فى بعض من هذه الكتب والأفلام غزو من خارج الأرض أو كارثة بيئية، ولكنه فى الغالب حرب نووية أو وحش ينجم عن تشوه چينى ينتج عن الجحيم الإشعاعى على الأرض. وكل هذه المنتجات ــ من بنات الثقافة الشعبية كفيلم «على الشاطئ» نفسه ــ تشترك فى شعور واحد بالكآبة والشؤم حقنته أولاً فى الوعى الأمريكى هيروشيما وناجازاكى، ولم يتفاقم إلا حين تنافست الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فيما بينهما من أجل تحقيق التكافؤ فى ترسانتهما النووية المتنامية، وهى سياسة الردع النووى المتبادل، والذى عرف فيما بعد بـ«الدمار المتبادل المؤكد».

إلا أن فيلم «على الشاطئ» ليس إعادة إخراج لسفر الرؤيا فى ثوب حديث، وليس للرب أو لإبليس دور فى نهاية العالم فيه. بل اللوم كله يقع على البشر. يقول العالِم الذى يقوم بدوره فريد أستير الطاعن فى السن الذى سأم العالم ويتم تسميمه بسبب دوره فى تصميم السلاح الذرى قبل أن يواجه الموت بالإشعاع: «الحرب اللعينة برمتها كانت صدفة. وفى النهاية لو أتيحت لنا مهلة للتأمل سنجد أن حضارتنا المزعومة دمرتها حفنة من الأنابيب الفارغة والترانزستورات». ثم يضيف بعبارة جانبية: «وربما كانت معيوبة أيضًا».

لا يرد للرب ذكر فى الفيلم إلا مرتين وإلا شفهيًّا. حيث يلقى أحد وعاظ «جيش الخلاص» خطبة ختامية فى قليل من الناس يجتمعون فى الطريق، حيث يتم توزيع حبوب انتحار حكومية، فيقول: «يا رب، أعطنا القوة. أعنا على فهم سبب هذا الجنون على الأرض، وأن نفهم لمَ دمرنا أنفسنا»[1]. وضابط بحرية شاب جاد يقوم بدوره أنتونى بيركنز يبتهل للرب فى غمرة أساه على مهمته الأبوية وهو يعطى جرعة السم لابنته الصغيرة بعد ظهور بوادر أعراض المرض الإشعاعى عليها، فيتمتم قائلا: «يا رب، يا رب اغفر لنا».

بل إن هذا الفيلم يشرد عن التراث الرؤيوى فى كلّ من اليهودية والمسيحية؛ لأنه لا يقدم أى أمل فى النجاة ولو لقلة من القديسين والشهداء، فكل من على الأرض هالكون سواء بالانتحار أو بالإشعاع، وينتهى التاريخ للأبد وبلا عودة. بل إن هذا ما يميز فيلم «على الشاطئ» عن معظم الكتب والأفلام الأخرى فى حقبة ما بعد الحرب والتى تركز على الناجين غير الخائفين. ومن اللحظات المؤثرة مشهد يصور ضابط البحرية الشاب بعد أن أعطى طفلته جرعة السم يعد قدحًا من الشاى المسموم لزوجته وهى بثياب النوم. وكانت حتى ذلك الوقت ترفض التسليم بأن العالم سينتهى، ولكنها تستسلم أخيرًا لقدرها. وتكون آخر كلماتها «حبيبى، أنا الآن مستعدة لقدحى من الشاى» وهو تعبير مجازى عن اليأس والعجز.

نحن إذن أمام سفر رؤيا بلا إله، ليس أمام البشرية فيها من تلقى عليه اللوم إلا نفسها، والأهم أنه ليس لديها من تلجأ إليه طلبًا للنجاة أو الخلاص. ويتحقق الهدف

فى آخر مشاهد الفيلم حيث نرى للمرة الثانية العلَم الموحى الذى عرض من قبل فى تعبئة «جيش الخلاص». يرفرف العلَم مهلهلاً رثًّا فوق طريق خلا من الحياة البشرية موحيًا بأن رسالته المشجعة «لا يزال هناك وقت يا أخى» باتت بلا معنى[٢].

وحتى لو كان سفر الرؤيا فى هولى وود لا يسمح بدور للرب، تبقى حقيقة فحواها أن فيلم «على الشاطئ» يحمل بضعة خيوط من الحمض النووى اللاهوتى الموجود فى سفرى الرؤيا ودانيال. فبعض الصدمات التى كانت تصيب الناس لمرأى اللوحات الكنسية أو المواد المطبوعة على الحجر فى عهد سابق ـ مشاهد يوم القيامة لمايكل أنجلو على سقف كنيسة سستين مثلاً، أو طبعة دورر المصورة من رؤيا القديس يوحنا ـ أصبحت تعرض ويتم تأملها على الشاشة الفضية. ونواتج الخيال الإنسانى هذه ـ من سفر دانيال إلى الرؤيا إلى أحدث الأفلام والمسلسلات الرؤيوية كلها ـ تطرح التساؤلات القديمة والمخيفة ذاتها: متى ينتهى العالم، وكيف، وماذا سيحدث بعده؟

ربما كان فيلم «على الشاطئ» تعبيرًا يائسًا عن حالة ذهنية رؤيوية سادت الخيال الأمريكى فى أربعينيات القرن العشرين وخمسينياته، أى «طفرة شؤم ما بعد الحرب» حسب وصف ستيفن أوليرى وهو باحث وناقد متخصص فى دراسة الفكر الرؤيوى فى السياسة الحديثة والثقافة الشعبية[٣]. وبدلاً من رؤساء الملائكة المنتقمين كجبرائيل وميخائيل، أصبحت الشخصيات السماوية فى نسخة الثقافة الشعبية من آخر الزمان أناس من كوكب الزهرة أو المريخ، وبدلاً من وحوش سفر الرؤيا الشيطانية صارت الوحوش من الزواحف كجودزيلا أو حشرات متحورة كالنمل العملاق فى فيلم «Them». ولكن صحيح أيضًا أن الخيال العلمى الرؤيوى يهتم بالآمال والمخاوف نفسها التى يتناولها سفر الرؤيا، ومعظم الكتب والأفلام التى تتخيل نهاية العالم تتخيل أيضًا «جنة جديدة» و«أرضًا جديدة» كسفر الرؤيا (ولكن ليس كفيلم «على الشاطئ») تنجو فيه النخبة وتزدهر.

تقول الناقدة والمراقبة الثقافية سوزن زونتاج فى مقال لها بعنوان «تخيل الكارثة» إن «أفلام الخيال العلمى لا تتناول العلم، بل تتناول الكوارث التى هى من أقدم موضوعات الفن. ومجازات الخيال العلمى تعد من الخرافات المتعلقة بالقلق الإنسانى

الدائم من الموت، ومن سبل التواؤم معه وإنكاره (خرافات الجنة والنار والأشباح كانت تؤدى الغرض نفسه)»[٤].

يلاحظ أن الرب لا يظهر على الإطلاق فى معظم الخيال العلمى الرؤيوى فى حقبة ما بعد الحرب. حتى «ديوس إيراى» لفيليپ ديك وروجر زيلازنى، وهى رواية معقدة لاهوتيًّا تدور حول ناجٍ من محرقة نووية فقد أطرافه يبحث عن الرب، وينتهى برؤيا صادمة مفادها أن «رب النقمة» الذى يبحث عنه هو فى الحقيقة العالِم الحكومى الذى صمم «آلات الشر التى أظهرت «رب» الكنيسة المسيحية على حقيقته، فهو إله هزيل إن لم يكن وهميًّا أصلاً»[٥].

يقول ديك، وزيلازنى فى إشارة إلى الرسول التوراتى: «إن العدو الأخير الذى تعرف عليه بولس ـ الموت ـ كُتب له النصر فى النهاية، وبولس مات بلا مقابل. لم يكن الموت عدوًّا أو العدو الأخير كما كان يظن بولس، بل الموت خلاص من العبودية لرب الحياة ديوس إيراى. فبالموت يتحرر الإنسان منه، وليس إلا بالموت»[٦].

والخلاص فى الخيال العلمى الرؤيوى، إن وجد أصلاً، يأتى لا من عند الرب، بل من عند البشر. وعنوان «رجل الياء ـ The Omega Man» يشير بشكل مباشر بالطبع إلى سفر الرؤيا («أنا الألف والياء، الأول والآخِر»)، إلا أن بطل الفيلم رجل فانٍ قام بدوره شارلتون هيستون الذى يتمكن من هزم الناجين المشوهين والذين يتسمون بقدر من الشيطانية من حرب بيولوچية مروعة لمجرد أن كان بحوزته رشاش نصف آلى ومولد كهربائى وعبوة من البنزين ومعمل يقوم فيه بتحضير دواء للوباء الذى قتل أو شوه كل من بقى على وجه الأرض. وينتهى الفيلم بصورة مسيحية صرفة ـ فالشخصية التى يؤديها هيستون يصاب بضربة رمح ويموت فى وضع يشبه وضع المسيح على الصليب ـ والأمل الأخير لنجاة البشرية قنينة من دمه، ولكن لمجرد أنه يحتوى على أجسام حيوية مضادة تبقى على حياة بقية الناجين. يقول أحد الناجين المتفائلين للمخلِّص البشرى: «كان بوسعك أن تنقذ العالم أيها المسيح»، ويسأله أحد آخر الأطفال الباقين على الأرض قائلا: «هل أنت الرب؟»[٧].

والتيمة ذاتها ـ أى العالِم والمخلِّص ـ يمكن العثور عليها بين العلماء الحقيقيين

ممن شعروا بأنهم مدعوون لعمل نبوءة دنيوية فى عالم ما بعد الحرب. فقد قامت «دورية علماء الذرة ـ The Bulletin of Atomic Scientists» مثلاً، بتصنيع ما عرف بـ«ساعة القيامة» لتكون آلة ترفع الوعى لدى الساسة والقواد العسكريين والمواطنين بما للانتشار النووى من عواقب وخيمة. إلا أن «ساعة القيامة» ـ وهى رمز لحقبة الحرب الباردة ـ تستغل المخاوف التى ألمت بالخيال البشرى منذ العصر التوراتى. يقول ستيفن أوليرى: «كأتباع عيسى ويوحنا المعمدان الأولين، كان العلماء الذين حاولوا دخول الساحة السياسية فى أواخر أربعينيات القرن العشرين يحركهم اقتناعهم الآنى بأن الوقت قصير، والدمار محقق ما لم نغير مسارنا»[٨].

اكتمل فك الارتباط بين الرب وآخر الزمان فى السياسة والثقافة الشعبية فى أواسط ستينيات القرن العشرين، بل أصبح من الممكن اعتبار نهاية العالم مادة مناسبة للهزل. ففيلم «على الشاطئ» الذى عرض فى سنة ١٩٦٤م يتناول نهاية العالم بيأس تام. وجاءت سنة ١٩٦٤م والعالم لا يزال قائمًا. وعندما ألقى ستانلى كوبريك نظرة أخرى على السيناريو نفسه رأى فيه مادة للضحك. والعالم ينتهى مرة واحدة وللأبد فى «دكتور سترينچلاف، أو كيف تعلمتُ أن أكف عن القلق وأن أحب القنبلة»، لكن الكوميديا فيه قائمة كأقتم ما يكون الهزل.

واللوم فى فيلم «د. سترينچلاف» يقع مرة أخرى على الفشل الإنسانى دون سواه. فيوجه قائد مارق من قواد القوات الجوية الأمريكية ضربة نووية للاتحاد السوفييتى على أمل إقناع الرئيس بإصدار أمر بتوجيه ضربة شاملة. ويقول أحد طيارى المقاتلة ب٥٢ وهو يقايض خوذته بقبعة رعاة بقر بالية: «أظن أن الوقت حان يا أولاد». ولكن يتبين أن السوفييت قاموا سرًّا بنشر «جهاز القيامة» المبرمج للرد على أى هجوم أمريكى بتفجير مخزون مخبأ عملاق من المتفجرات النووية الحرارية يصنع «كفن القيامة» وهى «سحابة مميتة من النشاط الإشعاعى تلف الأرض لمدة ثلاث وتسعين سنة» و«تقضى على كافة أشكال الحياة البشرية والحيوانية». فإذا سقطت قنبلة واحدة على الأراضى السوفييتية فإن العالم هالك لا محالة.

ولا يرد أى ذكر للرب أو لإبليس على لسان كوبريك ومعاونيه فى فيلم

«د. سترينچلاف»، ولكنهم ربما تنبهوا لسيناريو آخر الزمان بسفر الرؤيا فى تصميمهم المشهد النهائى للفيلم. ففى مواجهة الدمار التام للجنس البشرى، تتشبث العبقرية العلمية المختلة التى تسمى د. سترينچلاف بالأمل فى «سماء جديدة وأرض جديدة». إذ يمكن إيواء بضع مئات الآلاف من الرجال والنساء ـ«نواة للنوع البشرى»ـ فى «قاع بعض جذوع مناجمنا العميقة» لمدة قرن أو ما شابه. ويتم اختيار الرجال بناء على فحولتهم والنساء لجاذبيتهن الجنسية. وكقراء سفر الرؤيا القدامى الذين تصوروا المملكة الألفية حقبة من الوفرة والرخاء تم تخيل الأرض الجديدة فردوسًا حسية بالنسبة لمن بقوا لرؤيتها.

يقول د. سترينچلاف: «سيتناسلون بصورة مذهلة طبعًا، ولكن باللجوء لتقنيات التناسل المناسبة، ومعدل عشر إناث لكل ذكر، مثلاً، يمكن العودة لإجمالى الناتج القومى الحالى فى خلال عشرين سنة فى تقديرى». وعندما يخرج الناجون من الوهدة سيكون الرجال والنساء الذين تم اعتبارهم مؤهلين للحياة فى «الأرض الجديدة» جاهزين للعالم الجديد على السطح. ويستنتج أن «العاطفة السائدة ستكون عاطفة الحنين لمن رحلوا تختلط بروح من حب الاستطلاع الجرىء تجاه المغامرة المقبلة»[٩].

ولكن فى اللحظة التى يبلغ التفاؤل فيها أوجه، تصل طائرة أمريكية واحدة هدفها الاتحاد السوفييتى ويتم إطلاق «جهاز القيامة» فيمتلئ الجو فجأة بسلسلة من السحب على شكل عيش الغراب، وهى الصورة الرمزية للعصر الذرى. وكما فى فيلم «على الشاطئ» ـ ومرة أخرى على خلاف الكتب والأفلام الأخرى من النوع الرؤيوى ـ ينتهى فيلم «د. سترينچلاف» دون أمل فى بقاء البشرية. تقول كلمات الأغنية التى وضعت على صورة التفجيرات النووية الحرارية: «سنلتقى مرة أخرى، لا أدرى أين، ولا أدرى متى». والأغنية تصلح لأن تكون موسيقى تصويرية مصاحبة لسفر الرؤيا، إلا أن كلماتها تتسم بسخرية مريرة.

ومع ذلك فليس كل من فى أمريكا فى حقبة ما بعد الحرب يشارك فى وجهة النظر الدنيوية والتهكمية التى تميز فيلم «د. سترينچلاف». فالمسلَّمات المريحة للدين بصورته القديمة ـ بما فى ذلك نهاية العالم كما هى فى القراءة قبل الألفية لسفر الرؤيا ـ ظلت حية إلى حد كبير. بل إن هناك مفهومين رؤيويين متنافسين يتعايشان فى أمريكا، يقوم

أحدهما على العلم والآخر على الدين. فوجهة النظر التى تفيد بأن العالم قد ينتهى بحريق نووى ينسجم تمامًا عند المتدينين مع الإيمان بأن ذلك سيكون بمشيئة الرب لا البشر. فيعلن الأب تشارلز چونز راعى إحدى الكنائس المعمدانية فى أمارييو تكساس والتى تضم فى رعيتها العديد من العاملين فى مصنع بانتكس لتجميع القنابل الهيدروچينية: «ذات يوم قد نفجر أنفسنا بكل ما لدينا من قنابل، ومع ذلك فما زلت أؤمن بأن الرب سيظل هو المهيمن. فإذا ما شاء أن تنشب حرب نووية فمن أنا حتى أمارى فى ذلك؟»[١٠].

والحقيقة أن الأصولية المسيحية أنتجت نسختها الخاصة النابعة من الثقافة الشعبية من الفكر الرؤيوى، وتشمل كتبًا وأفلامًا وفكاهيات وصورًا وأشكالاً متنوعة من السلع الموحية. فالمتدين قد يبتاع «ساعة صعود» على سطحها رسالة تذكر حاملها بأن النهاية وشيكة ـ«اقتربتَ ساعة من عودة الرب»ـ أو تعرض لافتة تنبه المسافرين إلى أن السائق قد «يُخطف» إلى السماء فى أية لحظة: «إذا سمعتَ نفيرًا تشبث بالمقود»[١١].

والرؤى عما سيحدث عندما ينتقل المسيحيون فجأة إلى السماء قد تكون مخيفة ـ«قبور تنفجر وطائرات تهوى وعربات تخرج عن السيطرة»ـ أو مرحة. يقول پول بوير: «فى إحدى لوحات الصعود نرى زوجًا يدفع بآلة جز النجيل بالضواحى وينظر فاغرًا فاه لزوجته وهى تحلق بمريلتها فوق حبال الغسيل لتلقَى يسوع»[١٢]. وكان المقابل الحديث لعمل يرجع للعصور الوسطى حقق أفضل المبيعات ككتاب «علامات القيامة الخمس عشرة» دليلاً بعنوان «كيف تميز عدو المسيح؟».

والصغار فى الأسر الأصولية، تتم تنشئتهم من الطفولة على التوقع الدائم لنهاية العالم. يقول تيموثى ويبر: «كثير ممن شبوا فى أسر قبل ألفية لديهم قصص رهيبة يروونها عن عودة المرء لبيته فيجده خاليًا أو يجد نفسه فجأة وحيدًا فى أحد المتاجر الكبرى فيستنتج بالفطرة أن يسوع جاء وتركه»[١٣]. وتروى الروائية رودا هفى التى كان والداها واعظين خمسينيين (من طائفة أحد العَنصرة) عن حالة طفلة فى الحادية عشرة تنشأ على اقتناع بأنها ستُترك وحيدة بعد أن يُخطف والداها إلى السماء. تقول هفى فى رواية هى شبه سيرة ذاتية لها بعنوان «The Hallelujah Side»: «إذا غادر المسيحيون

فلا يزال هناك طريق آخر يقتضى منك أن تقطع رأسك. كان هذا فى سفر الرؤيا، ذلك السفر الرهيب. يمتطى المسيح الدجال صهوة جواده الداكن اللون ليسم جبهتك بوسم الوحش: ٦٦٦. وإذا رفضتَ فإنه يقطع رقبتك بمنجل فتصعد إلى السماء من فورك. إذن ليس هناك شىء تخشاه»[١٤].

إلا أن الثقافة الفرعية الرؤيوية لم تكن قاصرة على الخطب والمواعظ والرسائل والكتب الهزلية مهما كانت ملونة ومبتكرة. وكما أحسن أتباع ميلر استغلال أحدث تقنيات الطباعة السريعة بأواسط القرن التاسع عشر، سارع المتنبئون بيوم القيامة فى القرن العشرين لاستغلال أحدث تقنيات الاتصال المكثف. ففى سنة ١٩٣٦م، مثلاً، تأمل أحد الواعظين المتحمسين نبوءة سفر الرؤيا الشهيرة التى تقول «هُوَ ذَا يَأْتِى مَعَ السَّحَابِ وَسَتَنْظُرُهُ كُلُّ عَيْنٍ»[١٥] ثم قدم تفسيره لما قصد المؤلف التوراتى فقال: «كان علينا فيما مضى أن نركن إلى التفسير القائل بأن هذا لا يعنى بالضرورة أن الكل سيرون الرب آتيًا فى تلافيف سحب السماء فى وقت واحد، لكننا الآن نعلم أن هذا المشهد البهيج يمكن للعالم كله أن يراه فى لحظة وقوعه على شاشات التليفزيون»[١٦].

تم تخصيص بعض البرامج الأولى التى أذيعت بأحدث اختراع فى وقته والذى يعرف بالمذياع للتدين بصورته القديمة. فبدأ «معهد مودى للكتاب المقدس» بثه، مثلاً، فى أوائل الثلاثينيات على محطته الإذاعية القوية، وكان هناك برنامج إذاعى دينى من الوزن الثقيل بعنوان «ساعة اليقظة الدينية على الطراز القديم» صادرٌ من لونج بيتش بولاية كاليفورنيا وكان يتم بثه عبر أربعمائة وخمسين محطة إذاعية فى أنحاء الولايات المتحدة فى الأربعينيات. حتى شبكة سى بى إس الإذاعية كانت تبث برنامجًا أسبوعيًّا دينيًّا يقدمه دونالد جراى بارنهاوس (١٨٩٥ ــ ١٩٦٠م) محرر مجلة رؤيوية بعنوان «الرؤيا». وأعلن بارنهاوس ذات مرة قائلا: «لو سقطت القنابل الذرية على مدننا سنكون فى الجنة فى اللحظة التالية»[١٧].

ومن الوعاظ ذوى الشخصية الكارزمية من اكتشفوا قوة تأثير التليفزيون فتحولوا إلى نجوم كبار ذوى صدقية فى الأوساط المسيحية. ويمكن إرجاع الفضل لكل من أورال روبرتس (ولد ١٩١٨م) وبيلى جراهام (ولد ١٩١٨م) فى استحداث الوعظ الإيڤانجليكى

التليفزيونى ؛ بدأ كلا الكاهنين كواعظين إحيائيين فى السرادقات ، ولكنهما انتقلا للإذاعة فى الأربعينيات وللتليفزيون فى الخمسينيات. وتبعهما جيل كامل من الوعاظ الأصوليين أشهرهم پات روبرتسن (ولد ١٩٣٠م) وركس همبرد (ولد ١٩١٩م) وتيموثى لاهاى (ولد ١٩٢٦م) وچيمى سواجرت (ولد ١٩٣٥م) وچين باكر (ولد ١٩٣٩م) وچيرى فالويل (ولد ١٩٣٣م) ، وأصبح الأخير يوصف بأنه « أمير الكنيسة الإلكترونية »[١٨] .

استند كل هؤلاء فى وعظهم (وفى نداءاتهم لجمع الأموال) إلى مصطلحات رؤيوية واضحة ، ولعبوا على مخاوف رعيتهم الإلكترونية وآمالهم بالطريقة نفسها التى خاطب بها مؤلف سفر الرؤيا قراءه وسامعيه الأوائل. ومن الغريب أن الصحف اليومية وأفلام الخيال العلمى بعد ظهر السبت ، أخذت تدعم النبوءات الملحة عن نهاية العالم. فحذر بيلى جراهام إبان حملة ١٩٥٠م الصليبية قائلا : « قد يكون أمامنا سنة أخرى أو سنتان للعمل من أجل يسوع المسيح وبعدها أيها السيدات والسادة سينتهى كل شىء »[١٩] .

ظل الفكر الرؤيوى فى الأصولية المسيحية دائمًا على الجانب الأقصى من انقسام حضارى ما فى أمريكا. وكمؤلف سفر الرؤيا الذى كان يعادى الحضارة الكلاسيكية التى عاش فى كنفها ومارس وعظه ، أدان قراء سفر الرؤيا المحدثون بعضًا من أشهر سمات الحضارة الأمريكية. فهم يخافون الأعمال التجارية الكبرى والحكومة الكبيرة والعمالة الكبيرة ؛ ويثير اشمئزازهم اللهو المتاح فى دور السينما المحلية وفى الإذاعة والتليفزيون ، واستغلوا « الترسانة اللغوية » لسفر الرؤيا فى إدانة العالم الآثم الشيطانى الذى وجدوا أنفسهم فيه.

ومن المتنبئين الأمريكيين من سلطوا الضوء على الإيجابيات فيما يتعلق بنهاية العالم. فالمملكة الألفية ، مثلاً ، يتم الترويج لها أحيانًا بوصفها نسخة سماوية من الحلم الأمريكى. فأعلن أحد الوعاظ قائلا : « كل إنسان سيكون سيد نفسه فى العمل ، ويتمتع بثمار عمله كاملة. كل فرد من سكان العالم فى ذلك العهد سيكون مستقلاً لديه ممتلكاته الخاصة وبيته الخاص ويعول أسرته فى وفرة » . وحسَب واعظ آخر حسبة متفائلة ذهب فيها إلى أن « النسبة بين الفاقد والوفر سيكون ١ إلى ١٧٤٧٦ » . وهناك إيڤانجليكى مرتبط بـ « معهد مودى للكتاب المقدس » سلم جدلاً بأن « الرب سيحاسب

أمريكا ذات يوم» ولكنه أكد قائلا: «لدينا ما يبرر أملنا فى أن تسلم بلادنا وأن يشارك الأمريكيون فى فرحة المملكة»[٢٠].

إلا أن جذوة البغض والانتقام المتقدة فى قلب سفر الرؤيا توشك دائمًا على التحول إلى لهب. فأعلن الواعظ الإذاعى الرائد دونالد جراى بارنهاوس بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بقليل قائلا: «إن الولايات المتحدة تهرول وراء آلهة غريبة: جشع نقابات العمال وشهوة هولى وود وفجور الجماهير وهى تستغيث بالسماء للحساب»[٢١]. وهناك واعظ فى سنة ١٩٤٩م أدان المدارس العامة ـ «الملحدة التى لا كتاب مقدس لها ولا مسيح» ـ لأنها «تمهد الطريق لمجىء عدو المسيح»[٢٢]. وعزا ديهان مؤلف رواية رؤيوية بعنوان «أيام نوح ـ The Days of Noah» (١٩٦٣م) اضمحلال أمريكا الأخلاقى لـ«النسوة اللائى يتركن بيوتهن وأطفالهن ليعملن بالمصانع والحوانيت والمصالح الحكومية»، ووصف «جنون الناس بسحر الموسيقى الشعبية والصراخ والقهقهة والتأوهات وكلام الأطفال وأنات القردة»[٢٣].

وإذا جردت النسخة الأمريكية من الرؤيوية من قشرتها الخارجية، يتضح أنها سلاح فى الحرب الحضارية بين الأصولية والعالم الحديث. فأعلن ديفيد ويلكرسن فى سنة ١٩٨٥م قائلا: «سيحاسب الرب أمريكا على ما بها من عنف وجرائم و ردة وقتل ملايين الأطفال، وتفاخر بالشذوذ الجنسى، وتلذذ بتعذيب الغير وبتعذيب الذات، وفساد وخمر ومخدرات، وعلى فتورها تجاه المسيح، وعلى الطلاق والزنا والعرى والإباحية وعلى التحرش بالأطفال، وعلى الغش والسرقة، وعلى أفلامها القذرة وممارساتها الخفية. إن أمريكا اليوم ليست سوى حفل كبير يضم ملايين من السكارى والمساطيل يلوحون بقبضات أيديهم نحو الرب يتحدّونه أن يرسل القنابل»[٢٤].

ومن الوعاظ الرؤيويين من جمعوا كافة العلل التى يرون فى أمريكا المعاصرة فى شبكة تآمرية ضخمة يتربع الشيطان فى مركزها خافيًا، ولكن لا تخطئه العين. وفى لحظة ما يقال إن عناصر «المؤامرة الكونية التى تهدف لتنصيب عدو المسيح» تشمل المصرفيين والتغذية الارتجاعية الحيوية وبطاقات الائتمان والحواسب ومجالس العلاقات الخارجية والحركة النسائية وعلم النفس الفرويدى والمرشدين الروحيين الهنود و«اليهود

الدوليين» والسحاق والماسونية ومدارس «مونتيزورى» والنزعة الإنسانية العلمانية و«اللجنة الثلاثية» والأرقام الكودية الدولية للمنتجات والأمم المتحدة، وتستمر القائمة طبعًا[٢٥]. حتى «بروتوكولات حكماء صهيون» التى ثبت منذ مدة طويلة أنها عمل دعائى معادٍ للسامية اختلقه البوليس السرى لروسيا الاستعمارية لا يزال يبرز إلى السطح من حين لآخر فى الأوساط الرؤيوية.

تبدأ نظرية المؤامرة فى نص سفر الرؤيا حيث ينبه المؤلف قراءه وسامعيه إلى مخاطر «أعماق الشيطان» ويحذرهم من خفايا مشيئة الشيطان التى تنفذ عبر الكائنات التى هى عملاؤه وزبانيته[٢٦]. من ثم فكل ظاهرة جديدة غير مألوفة فى أمريكا ما بعد الحرب كان المتدينون الرؤيويون يرون فيها تجليًا آخر للمؤامرة الشيطانية نفسها. فالثورة التقنية، مثلاً، والتى أدخلت الحواسب فى شتى مناحى الحياة الأمريكية أوحت لبعض قراء سفر الرؤيا أن يروا فى أرقام بطاقات الائتمان والأرقام الكودية لتحديد أثمان السلع «وسم الوحش». وكما يقول مؤلف سفر الرؤيا: «لاَ يَقْدِرِ أَحَدٌ أَنْ يَشْتَرِى أَوْ يَبِيعَ إِلا مَنْ لَهُ السِّمَةُ أَو اسْمُ الْوَحْشِ أَوْ عَدَدُ اسْمِهِ»[٢٧]. بل إن قلة من الرؤيويين تؤكد أن عدو المسيح سيكون حاسبًا آليًّا[٢٨].

ولكن من المفارقات أن نظريات المؤامرة كانت فى الحقيقة مصدر راحة ـ «مرساة... فى عالم من الشك والريبة» ـ لكل من حيرتهم الاضطرابات الحضارية والسياسية فى أمريكا ما بعد الحرب[٢٩]. وحيثما رأى المراقب العلمانى «معنى ضمنيًّا من التآمر وعقدة الاضطهاد والاغتراب الاجتماعى» فى الوعظ الرؤيوى، يرى المؤمن المتدين رؤيا تضفى على التاريخ «بعدًا دراميًّا ومعنى» حسب قول پول بوير. بل إن الأمريكيين المستريحين الراضين الذين لا يضايقهم إلا الملل والضجر يجتذبهم ما بسفر الرؤيا من إثارة، ويجدون معنى لعالم لا معنى له باعتناقهم الفكرة الرؤيوية التى تقول إن «التاريخ يتبع مسارًا واضحًا حدده الرب، وإنه متجه نحو نهاية مهيبة»[٣٠].

ومع ذلك فإن غرائب المنذرين بالشؤم المسيحيين فى أمريكا ما بعد الحرب لم تكن خافية على الجماهير التى ضحكت كثيرًا على «د. سترينچلاف» حين عرض فى سنة ١٩٦٤م. وقد يقوم «شهود يهوه» الجوالون الذين يذهبون إلى الناس فى بيوتهم

يوزعون مطبوعات مجانية بالتبشير حتى بين الأسر الدنيوية أو العلمانية تمامًا بالطبع. ومن مطبوعات «جمعية الكتاب المقدس والدعوة» كتاب بعنوان «سفر الرؤيا: ذروته الكبرى وشيكة!» يضم صورًا هزلية لقصص سفر الرؤيا المتعلقة بالحيوان. وكل من كان يدير مؤشر القنوات بالتليفزيون فى صباح أى يوم أحد فى خمسينيات القرن العشرين أو ستينياته كان يجد مواعظ أورال روبرتس أو بيلى جراهام أو ما لا حصر لهم من التبشيريين التليفزيونيين الناشئين. إلا أن الأفكار القديمة المتعلقة بنهاية العالم كانت فى عمومها تنحصر فى الچيتو المسيحى، بينما اعتادت بقية أمريكا على فكرة أن يوم القيامة سيكون مغامرة إنسانية بحتة.

وكأشياء أخرى كثيرة فى أمريكا ما بعد الحرب، كانت طرق التفكير وأساليب الحديث عن نهاية العالم على وشك أن تشهد تغيرًا عميقًا ودائمًا. فاجتاحت أمريكا موجات متعاقبة من الأفكار الراديكالية الجديدة والتجارب الجديدة المحيرة فى ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، كالحرب والتمرد والاغتيال طبعًا، ولكن حركة الحقوق المدنية والحركة المعادية للحروب والثورة الجنسية وثورة الحواسب والهوس بفريق الخنافس ومهرجان وودستوك للروك آند رول وحبوب تنظيم النسل والصعود إلى القمر أيضًا. كان هناك تغيير، واجتاحت رياح التغيير الأصولية المسيحية أيضًا. وكان العالم الجديد وجهة لغزو رؤيوى آخر أخرج سفر الرؤيا من الچيتو المسيحى ووضعه فى قلب السياسة والثقافة الشعبية الأمريكية.

كان العراف الرؤيوى العصامى الذى وضع الفكر الرؤيوى على قائمة أفضل المبيعات فى أمريكا واعظًا ذا شخصية جاذبة يدعى هال لينسى (ولد ١٩٣٠م). وكان يعمل قائد باخرة سحب بنهر المسيسپى فى الخمسينيات، حين مر بتجربة تحول دينى قوية. وبعد الدراسة بمعهد اللاهوت بدالاس، وهو مركز لعقيدة ما قبل الألفية، اتخذ لينسى طريقه ليصبح واعظًا لدى «الدعوة الصليبية الجامعية من أجل المسيح». وفى أعقاب ما حقق من ردود أفعال مشجعة لخطبه عن نبوءات الكتاب المقدس والتى ألقاها بأواخر الستينيات، خرج لينسى ومعاونه كارلسن إلى العلن بنبوءته بقرب النهاية ونشره كتابه «كوكب الأرض العظيم الراحل ـ The Late Great Planet Earth» فى سنة ١٩٧٠م.

كسابقيه ممن حققوا أكبر انتشار فى العصور الوسطى، أعاد ليندسى فى كتابه تأويل متن سفر الرؤيا وغيره من فقرات رؤيوية فى الكتاب المقدس بلغة أقرب إلى عقل القارئ المعاصر. وكوفئ ليندسى بحصوله على مرتبة أفضل الكتب مبيعًا حيث فاقت مبيعات كتابه حتى «الكتاب المقدس المرجعى لسكوفيلد» وتجاوز نطاق قراء المتون الأصولية المسيحية بكثير. فبيع من «كوكب الأرض العظيم الراحل» عشرون مليون نسخة وأثنت صحيفة «نيويورك تايمز» على ليندسى واعتبرته «أفضل كتّاب السبعينيات مبيعًا»[٣١]. ويذهب إيرمن إلى أبعد من ذلك، حيث يعلن أن ليندسى «أوسع الكتّاب الدينيين قرَّاء فى العصور الحديثة»[٣٢].

أثبت ليندسى بكتابه «كوكب الأرض العظيم الراحل» ذكاءه الإعلامى، ولكنه لم يكن سوى أحدث حلقة فى سلسلة طويلة من الوعاظ الرؤيويين التى تمتد إلى الوراء حتى مؤلف سفر الرؤيا نفسه. فهو محارب شرس فى الحرب الحضارية تحدى كل «بعبع» أدركه فى الثقافة الفرعية، وما يعرف بالعصر الجديد ـ علم الفلك والإدراك فوق الحسى والتأمل والزهد والروحانية والسحر وعقاقير الهلوسة والسياسة التقدمية والمسكونية المسيحية وما يسميه «الديانات الشرقية»[٣٣]. وكمؤلف سفر الرؤيا أيضًا يدين ليندسى كل الأفكار الخاصة بالدين عدا أفكاره هو، ويرى أن الاختلاف والتهاون فى أمور الدين هما أدوات الشيطان. كتب ليندسى ملمحًا، ولكنه لم يصرح قط بهوية الكنائس التى يعتبرها «عرش الشيطان» فيقول: «الشيطان يحب الدين؛ لذا فهو يغزو بعض الكنائس فى أيام الأحد. والدين «غماية» كبرى تحجب عقول الناس»[٣٤].

والأهم أن ليندسى يؤكد أن مشيئة الرب لنهاية العالم الوشيكة موجودة فى «الحقائق الثابتة لنبوءات الكتاب المقدس». وكتاب «كوكب الأرض العظيم الراحل» هو فى الحقيقة إعادة صياغة لعقيدة ما قبل الألفية التدبيرية، كما وضعها چون داربى فى القرن التاسع عشر. يبدأ ليندسى بقوله: «فى مرحلة ما فى المستقبل، ستكون هناك فترة سبع سنوات تبلغ ذروتها بعودة يسوع المسيح المشهودة»، ثم يواصل فيصف النسخة القياسية لسيناريو نهاية العالم كما تعلمها فى معهد اللاهوت فى دالاس. والحقيقة أن بعض زملائه السابقين بالمعهد ـ والذين يكنون له قدرًا من الحسد بكل تأكيد

على ما أحرز من نجاح ـ «قالوا إن كل ما يفعل ليندسى هو أنه يعيد صوغ ما قال من قبل فى محاضراته»[٣٥].

يبدأ «العد التنازلى ذو السبع سنوات» لـ«المجىء الثانى» بإعادة بناء هيكل أورشليم [القدس] وعودة الشعب اليهودى لتقديم القربان الحيوانى. يلى ذلك قيام الحكم الشمولى العالمى لعدو المسيح وحقبة الاضطهاد التى تعرف بالضيقة، ولكن بعد «خطف» المتدينين المسيحيين إلى السماء وفى ختام الضيقة، يعود يسوع المسيح لخوض معركة أرمجدون وتولى حكم مملكة سِلْم على الأرض لمدة ألف سنة، وفى النهاية يهزم الشيطان مرة واحدة وإلى الأبد ويجلس لحساب الجنس البشرى كله ويثيب القديسين المسيحيين بالحياة الأبدية فى سماء جديدة وأرض جديدة.

وعن الخطف يقول ليندسى: «ذات يوم، يوم لا يعلمه إلا الرب، سيعود يسوع المسيح ليأخذ كل من آمنوا به. وبدون الاستفادة بالعلم أو بزات الفضاء أو الصواريخ الفضائية، سيكون هناك من يتم نقلهم إلى مكان جليل أجمل وأروع مما يمكن لنا أن نتصور»[٣٦].

وما يميز ليندسى عن المنذرين بالشؤم ممن تحرز كتبهم مبيعات أكثر تواضعًا، عبقريته فى ربط سفر الرؤيا بالواقع الجغرافى السياسى للعالم المعاصر. وفى هذا الصدد أيضًا يقتدى ليندسى بقراء سفر الرؤيا الأقدم زمنًا، بل إن مؤلف سفر الرؤيا نفسه ـ كما سبق أن رأينا ـ يرى فى الإمبراطور الرومانى نيرون المسيح الدجال، وأبدت الأجيال المتعاقبة شكوكها أيضًا فى شخصيات بعينها. وكسائر الشراح فى كل عصر يقدم ليندسى لقرائه وسامعيه سبيلاً لفهم العالم المخيف الذى يعيشون فيه. فهو بالنسبة له عالم ابتلى بالسياسة الواقعية للحرب الباردة والتهديد المستمر بالفناء النووى.

والمسيح الدجال عند ليندسى سيكون سياسيًّا من بنى البشر يرقى لمكانة الزعامة فيما يسمى «إحياء الإمبراطورية الرومانية»، أى «السوق المشتركة» أو جماعة الأمم التى مهدت للاتحاد الأوروبى الحالى[٣٧]. ويرى أن ماجوج هو الاتحاد السوفييتى وجوج رئيسه. و«ملوك الشرق» المشار إليهم باقتضاب فى سفر الرؤيا كمحاربين فى معركة أرمجدون يقصد بهم الإشارة إلى جمهورية الصين الشعبية[٣٨]. والحريق الأخير

الذى ورد وصفه فى سفر الرؤيا بنجوم تهوى من السماء ووحوش تصعد من الهاوية، يقصد به حربًا نووية عالمية «إطلاق شامل للصواريخ البالستية على المناطق الحضرية الكبرى فى العالم»[٣٩].

ويؤكد لينسى أن الرب وهب رؤى عن المستقبل البعيد للأنبياء القدامى كانت غير مفهومة تمامًا لهم أو لقرائهم وسامعيهم الذين كانوا ينشرون دعوتهم بينهم فى حياتهم. فيستشهد لينسى بسفر زكريا فى قوله: «لَحْمُهُمْ يَذُوبُ وَهُمْ وَاقِفُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ وَعُيُونُهُمْ تَذُوبُ فِي أَوْقَابِهَا وَلِسَانُهُمْ يَذُوبُ فِي فَمِهِمْ»[٤٠] ويعزو للنبى العبرانى رؤيا عن أحداث آتية لا تحدث إلا فى عصر ذرى. ويتساءل لينسى قائلا: «هل جال بخاطرك أن هذا ما يحدث بالتمام لمن يتعرضون لضربة نووية حرارية؟ يبدو أن هذا ما سيحدث لدى عودة المسيح»[٤١].

لينسى إذن يتخذ «ترسانة لغوية» من صنعه فى كتابه «كوكب الأرض العظيم الراحل»، مفردات يهدف بها إلى جذب انتباه قرائه المنهكين الذين ما كانوا ليطالعوا كتابًا فى الشهادة المسيحية أو النبوءة التوراتية سواه. وهكذا فالكتاب المقدس نفسه هو «الأكثر مبيعًا» عنده، وعدو المسيح يسمى «هتلر المستقبل» وزانية بابل العظيمة «البغى القرمزية» وأرمجدون «الحرب العالمية الثالثة». والمائة والأربعة والأربعون ألفًا من الذكور الأبكار من أسباط إسرائيل الاثنى عشر الذين يقال إن يسوع المسيح «سيختمهم» فى آخر الزمان يسمون عنده «القديسين اليهود»، وهم «يهود حقيقيون من لحم ودم سيؤمنون على مضض بأن يسوع هو المسيح» (ويرى أن كل اليهود الآخرين سيكونون ماتوا أو اختفوا) وبعد أن يدين لينسى تعاطى مواد الهلوسة يطلق على تجربة «الخطف» «الرحلة الأخيرة»[٤٢]. يقول لينسى: «لو كنتَ مؤمنًا فالإصحاحان الرابع والخامس من سفر الرؤيا يصفان ما ستمر به فى السماء. شىء أشبه بالعقاقير التى تمدد العقل»[٤٣].

ولا يجد لينسى فى نفسه القدرة على مقاومة الإغراء الذى أدى لإحراج من سبقوه من منذرى الشؤم من مونتانوس إلى الأب ميلر، أى الخطيئة الكبرى لتحديد توقيت بعينه. فيقول إن ساعة العد التنازلى ليوم القيامة بدأت بإقامة دولة إسرائيل فى

العصر الحديث، ويفسر عبارات مختلفة من النص التوراتى لتؤكد أن النهاية آتية فى حياة الجيل الذى شهد نشأتها فى سنة ١٩٤٨م. وعلى فرض أن الجيل يوازى حوالى أربعين سنة فإن ليندسى يرى فى كتابه «كوكب الأرض العظيم الراحل» الذى صدر فى سنة ١٩٧٠م أن «الخطف» سيحدث فى سنة ١٩٨١م تليه حقبة اضطهاد فى عهد المسيح الدجال ثم معركة أرمجدون والمجىء الثانى ليسوع المسيح فى سنة ١٩٨٨م.

وثبت خطأ لينزى بالطبع. ومع اقتراب سنة ١٩٨١م لم يكن «الخطف» يبدو وشيكًا، فأعاد حساباته عن آخر الزمان وخرج بجدول منقح قليلاً فى كتابه «الثمانينيات: العد التنازلى لأرمجدون ـ The 1980s: Countdown to Armageddon». ولكن فى أعقاب سقوط المعسكر السوفييتى بأوائل التسعينيات، خطر له أن يقدم سيناريو جديدًا لآخر الزمان فى كتابه «كوكب الأرض ٢٠٠٠ ـ Planet Earth 2000» الذى أصدَره فى سنة ١٩٩٤م قال فيه إن الأصولية الإسلامية لا الجيش الأحمر ستكون العدو الأخير ليسوع المسيح فى معركة أرمجدون، ولو أنه يؤكد أن «انهيار» الشيوعية جزء من لعبة خداعية كبرى من تدبير ميخائيل جورباتشيف وجهاز الاستخبارات السوفييتى[٤٤]. وبعد ذلك قدم ليندسى رؤية أخرى عن ألاعيب الشيطان، فقال إن رؤية الأطباق الطائرة «حيل خداعية يقوم بها الجان يعقبها قريبًا هبوط مكثف للأطباق الطائرة على سكان الأرض الضالين ليؤمنوا بوجود حياة على الكواكب الأخرى»[٤٥].

ظل ليندسى نفسه ـ كسلفه الأب ميلر ـ مبتهجًا ولم يتأدب على الرغم من ثبوت خطأ نبوءاته وفشل كتبه التعديلية فى تحقيق المبيعات المرتفعة التى حققها كتابه «كوكب الأرض العظيم الراحل». حقق ليندسى شيئًا جديدًا ومهمًّا وثابتًا على الرغم مما منيت به نبوءاته من فشل واضح، إذ لعب دورًا خطيرًا فى انتزاع الفكر الرؤيوى من قبضة الكنيسة الأصولية وإدخاله فى مسار الحضارة الأمريكية. فمن بين قرائه البالغ عددهم عشرين مليونًا مثلاً، خرج رجل قدر له أن يخرج بسفر الرؤيا من نطاق سرادقات الوعظ إلى البيت الأبيض.

حقق سفر الرؤيا أول اختراق له للسياسة الأمريكية بالصعود الذى كان مستبعدًا

لنجم رونالد ريجان، كحاكم لكاليفورنيا أولاً ثم كرئيس للولايات المتحدة. نشأ ريجان فى كنيسة لها جذور تعود إلى حقبة «الصحوة الكبرى الثانية»، ويقال إنه قرأ «كوكب الأرض العظيم الراحل» فى صباه. وربما كان ريجان أول شخصية قومية من خارج الدوائر الأصولية يعلن دون مواربة أو خجل عن إيمانه بقرب تحقق نبوءات الكتاب المقدس.

ورد عن رونالد ريجان حين كان فى منصب حاكم ولاية كاليفورنيا أنه قال فى حديث نشر فى سنة ١٩٦٨م بمجلة «Christian Life»: «يبدو واضحًا أن التاريخ لم يشهد من قبل تحقق كل هذا الكم من النبوءات فى مثل هذه الفترة الوجيزة»[٤٦]. وكان أكثر وضوحًا فى عشاء سياسى أقيم فى ساكرامنتو فى سنة ١٩٧١م فى معرض تعليقه على مغزى محاولة انقلاب عسكرى وقع فى ليبيا مؤخرًا، حيث أعلن قائلا: «هذه علامة على أن يوم أرمجدون ليس بعيدًا. كل شىء يحدث فى موعده. لم يعد الأمر بعيدًا الآن»[٤٧].

وكان ريجان قادرًا على الاستشهاد بإصحاح وفقرة تؤيد نبوءته. ويبدو أن أحداث ليبيا وضعته فى حالة ذهنية أشبه بأحد دروس مدارس الأحد عن النبوءات الرؤيوية فى الكتاب المقدس العبرى. فهناك فقرة فى سفر زكريا تقول: «لأَنَّ الْيَوْمَ قَرِيبٌ. وَيَوْمٌ لِلرَّبِّ قَرِيبٌ ... يَسْقُطُ مَعَهُمْ بِالسَّيْفِ كُوشُ وَفُوطُ وَلُودُ وَكُلُّ اللَّفِيفِ». ويبدو أن ريجان لدى رؤية السقاة وهم يوقدون أقداح يوبيل الكرز فى غرفة الطعام خافتة الضوء تذكَّر وعد الرب بأن ينزل على جوج عدو إسرائيل التوراتى «حِجَارَةَ بَرَدٍ عَظِيمَةً وَنَارًا وَكِبْرِيتًا»[٤٨]. وألمح ريجان بهذه الفقرات فى حديثه على المائدة واستنتج قائلا: «لا بد أن هذا معناه أنهم سيَهلكون بالأسلحة النووية»[٤٩].

أخذ ريجان معه دروس مدارس الأحد هذه إلى واشنطن. فقال للمبشر الإيڤانجليكى التليفزيونى چيم باكر فى سنة ١٩٨٠م: «قد نكون الجيل الذى يشهد أرمجدون»[٥٠]. وقال لأحد أعضاء جماعات الضغط اليهود فى سنة ١٩٨٣م: «أوَتعرف؛ أنا أرجع لأنبيائكم القدامى فى العهد القديم والعلامات التى تنبئ بمعركة أرمجدون فأجد نفسى أتساءل عما إذا كنا نحن الجيل الذى سيرى هذا الحدث. لا أدرى

ما إذا كنتَ لاحظتَ هذه النبوءات مؤخرًا، ولكن صدقنى، إنها يقينًا تصف الأحداث التى نشهد»[٥١].

أحاط ريجان نفسه فى البيت الأبيض برجال يشاركونه الإيمان بالمعتقدات نفسها. فيقول وزير دفاعه كاسبر واينبرجر: «أنا طالعتُ سفر الرؤيا وأعتقد أن العالم سينتهى ــ بعمل من لدن الرب كما أتمنى ــ ولكن يرد بخاطرى كل يوم أن الوقت أزف». واعترض چيمس واتس وزير داخلية ريجان على سؤال عن خططه لحماية البيئة حفاظًا على الأجيال القادمة بالتذكير بالمجىء الثانى حيث قال: «لا علم لى كم من أجيال المستقبل يمكن لنا أن نحصى قبل عودة الرب»[٥٢].

ويبدو أن ريجان كان قارئًا مقتنعًا بما ورد فى «كوكب الأرض العظيم الراحل». يقول ستيفن أوليرى: «كل اقتراح أورده ليندسى عن السياسات الداخلية والخارجية كان جزءًا من برنامج ريجان الانتخابى»[٥٣]. ولكى يسمع ليندسى يقولها بنفسه، كان ريجان يتوق لاجتذاب المؤسسة العسكرية للإيمان الرؤيوى الحق. فيؤكد ليندسى أنه دُعى بمباركة من الرئيس ليحدث واضعى الخطط الحربية بمقر وزارة الدفاع الأمريكية عن العواقب الإلهية للحرب النووية مع الاتحاد السوفييتى. ودعا ريجان المبشر الإيڤانجليكى التليفزيونى چيرى فالويل وهو واعظ رؤيوى آخر له مكانته لحضور اجتماعات مجلس الأمن القومى ليقوم بالدور التبشيرى نفسه مثل ليندسى.

كانت هذه المفاهيم مألوفة تمامًا فى الكنائس الأصولية فى أمريكا، وكانت تصل إلى جمهور أعرض عبر البرامج الإذاعية والتليفزيونية لمختلف المبشرين الرؤيويين المشهورين والمغمورين على السواء، ولكنها كانت تثير الأعصاب حين ترد فى خاطر وعلى لسان رجل تصاحبه أينما ذهب الأرقام الشفرية لإطلاق ترسانة أمريكا النووية. فإذا كان رئيس الولايات المتحدة من المؤمنين المقتنعين بأن «يوم أرمجدون ليس ببعيد» أمَا يمكن أن توسوس له نفسه أن يأخذ على عاتقه مهمة صب النار والكبريت على أحدث عدو يعتبره عدو المسيح؟

هذا السؤال المزعج طرحه المراسل الصحافى مارڤن كالب فى المناظرات المتلفزة لحملة ١٩٨٤م الرئاسية. وسمع البعض نانسى ريجان وهى تغمغم معربة عن وجلها،

لكن الرئيس نفسه كان مستعدًّا برد معقول يليق برجل دولة. أقر ريجان بأن له اهتمامًا «فلسفيًّا» بالنبوءات التوراتية الخاصة بمعركة أرمجدون، وقال إن «بعض علماء اللاهوت» يرون أن «النبوءات التى تنذر بذلك بدأت تتجمع». ولكنه استنتج استحالة معرفة ما إذا كانت أرمجدون «على بعد ألف سنة أم بعد غد». وأكد أنه «لم يحذر بجدية، ولم يقل إننا يجب أن نضع خططنا وفقًا لأرمجدون»[٥٤].

لكن القضية لا تزال قائمة. فعبرت صحيفة «نيويورك تايمز» عن رأيها فى الخطر الذى يشكله المستشارون «الأرمجدونيون» فى دوائر إدارة ريجان الداخلية. ولاحظ الصحافى «غير المألوف» هنتر تومسن أن «الرئيس بات قاطع تمامًا فيما يتعلق بسفر الرؤيا» وأشار إلى بعض المشاهد الغريبة التى وردت بالنص التوراتى، وقال إن «العديد من الخبراء يؤخذون فى بزات بيضاء بأكمام طويلة للغاية لرؤية هذه الأشياء»[٥٥]. وفى ملحوظة أكثر يقظة، شاركت لجنة من مائة من رجال الدين فى مناشدة الرئيس «أن ينفى الاعتقاد بأن المحرقة النووية مقدرة سلفًا فى الكتاب المقدس»[٥٦].

ومع ذلك واصل ريجان تأكيد إيمانه العميق بسيناريو نهاية العالم كما ورد بسفر الرؤيا بإطلاقه تسميته الشهيرة «إمبراطورية الشر» على الاتحاد السوفييتى. وكان للعبارة معنى واحد لدى المعجبين بـ «حرب النجوم»، ولكن كان لها معنى مختلف تمامًا لدى قراء سفر الرؤيا، حيث ذكرتهم بإمبراطورية الشيطان التى ورد وصفها فى المجاز التوراتى «بَابِلُ الْعَظِيمَةُ أُمُّ الزَّوَانِى وَرَجَاسَاتِ الأَرْضِ»[٥٧]. بل إن ريجان قال ذلك فى خطاب أمام «اتحاد الإيفانجليكيين القومى» فى سنة ١٩٨٣م، حيث وصف الاتحاد السوفييتى بأنه «بؤرة الشر فى العالم الحديث» وتنبأ بأن إمبراطورية الشر والتاريخ نفسه لن يلبث كلاهما حتى ينتهيا. وقال الرئيس: «هناك خطيئة وشر فى العالم، ونحن مكلفون من قبل الكتاب المقدس والرب يسوع بصدهما بكل ما أوتينا من قوة. وأعتقد أن الشيوعية فصل آخر حزين وغريب فى تاريخ البشرية الذى لا تزال آخر صفحاته تدون حتى الآن»[٥٨].

أصاب ريجان فى نصف ما قال بالطبع. فانتهاء الاتحاد السوفييتى نفسه ــ دون العالم ـ شكل مشكلة غريبة للمنذرين بالشؤم، ولا سيما من يحددون التوقيت منهم.

إلا أن المؤمن الحق كما رأينا مرارًا ـ لا يزعجه فشل أية نبوءة إذ يمكن دائمًا إعادة صوغها لتلائم آخر مستجدات الأحداث. وما إن تم حقن سفر الرؤيا فى السياسة وشئون الدولة على يد رونالد ريجان، حتى تبوأ مكانة واتخذ سطوة لم يحظ بهما منذ عمل كل من يواقيم الفيورى وهيلديجارد بينجن مستشارين رؤيويين لدى بابوات عالم العصور الوسطى وملوكه.

تتزامن المكانة الجديدة التى اكتسبها الفكر الرؤيوى فى السياسة الأمريكية مع شعبيته المفاجئة فى الثقافة الشعبية الأمريكية، حيث بدأت لغة سفر الرؤيا المجازية فى الظهور فى المنتجات الصناعية بدءًا من أغنية لفريق «سكس بيستولز» بعنوان «أنا عدو المسيح» إلى عبارة فى إعلان لبيتسا هت يقول «احذر من ٦٦٦! فهو عدو البيتسا!»[٥٩]. وليس من قبيل المصادفة أن مكانة أفضل الكتب مبيعًا التى تحققت لكتاب «كوكب الأرض العظيم الراحل» فى أوائل السبعينيات أعقبها على الفور ظهور «النذير ـ The Omen» وهو فيلم رعب رؤيوى عن ديپلوماسى أمريكى يكتشف أن ابنه الذى تبنى عن غير قصد هو عدو المسيح. يقول سطر يبرز فى حبكة الفيلم ـ ويلخص السيناريو الرؤيوى وفقًا لرأى چون داربى ـ: «حين يعود اليهود إلى صهيون ويشق السماء مذنب، تنشأ الإمبراطورية الرومانية، ثم يتحتم علىّ وعليك أن نموت»[٦٠].

ومن الغريب أن الفيلم لا يهتم بفكرة نهاية العالم. بل يفتعل صانعو الفيلم خط حبكة وهميًّا تمامًا يقتضى من البطل الذى يقوم بدوره جريجورى بك أن يقتل الطفل الشيطانى بسبعة خناجر مستخرجة من تحت أرض مجدو وهى الموقع المفترض لمعركة أرمجدون. ويعلن أحد الكهنة المنذرين بالشؤم: «سفر الرؤيا تنبأ بكل ذلك»، لكن سفر الرؤيا لا يتنبأ بشىء كهذا[٦١]. بل إن فيلم «النذير» «يمكن قراءته باعتباره يعكس ازدواجية جيل الانفجار السكانى فيما يتعلق بالأبوة» حسب قول ستيفن أوليرى، ولا شأن له بما ورد فى سفر الرؤيا[٦٢].

ومع ذلك حقق فيلم «النذير» فى شباك التذاكر نجاحًا يكفى لإنتاج سلسلة منه تشمل «Damien: Omen II» فى سنة ١٩٧٨م و«The Final Conflict» فى سنة ١٩٨١م، ورجع كاتب سيناريو فيلم «النذير» إلى البئر الرؤيوى من جديد لكتابة

حلقات قصيرة بعنوان «الرؤيا ـ Revelation» فى سنة ٢٠٠٥م. وتم الترويج لإنتاج معاد من «النذير» فى سنة ٢٠٠٦م بشعار يقول: «احذر ٦ / ٦ / ٠٦». والمشهد الذى لا ينسى فى فيلم «النذير» حيث يكتشف السفير وحمة على شكل ٦٦٦ على جمجمة عدو المسيح الصغير ـ هو الذى نقل المغزى الشيطانى للرقم ٦٦٦ لملايين الأمريكيين ممن لم يفتحوا سفر الرؤيا قط. وهكذا أصبح مجموع الخرافات الحضرية فى أمريكا يضم نوادر عن زبائن المتاجر الكبرى ورفضهم قبول الفكة التى يبلغ مجموعها ٦,٦٦ أو أصحاب العربات الذين يعيدون لوحات الأرقام التى تشتمل على الرقم ٦٦٦. يقول المؤرخ الكنسى وعالم اللاهوت الشعبى ليونارد سويت: «الترقب والانتظار والسعى إلى الألفية أصبح شغل أمريكا الشاغل بصورة فاقت حتى كرة القدم»[٦٣].

إلا أن النسخة الشعبية من الرؤيا تخفق فى نقل الآمال والمخاوف كما بُثت فى نفوس قراء سفر الرؤيا وسامعيه منذ أنشئ قبل عشرين قرنًا من الزمان. فتم وصف نهاية العالم حرفيًّا وبشكل مرعب حسب سفر الرؤيا فى سلسلة من الأفلام ـ منها «صورة الوحش ـ Image of the Beast» و«التحذير المبكر ـ Early Warning» و«الساعة الأخيرة ـ The Final Hour» و«الطريق إلى أرمجدون ـ The Road to Armageddon» ـ أنتجها أصوليون مسيحيون ولم تعرض إلا فى قباء الكنائس وقاعاتها الدراسية. ولكن كلما انبرى مخرج علمانى لتناول سفر الرؤيا بصورة مباشرة فإن غياب الإيمان الحقيقى يقف فى طريقه.

ففيلم «الخطف ـ The Rapture» المستقل الطويل لمايكل تولكين ـ على سبيل المثال ـ يتمزق بين الانبهار بالصور الأيقونية لسفر الرؤيا وفزع الأصولية الدينية. والمؤكد أن هذا الفيلم أقرب كثيرًا لما ورد وصفه فعلاً فى المتن المقدس المسيحى من أى إنتاج سينمائى كبير آخر من سلسلة أفلام «النذير». فالبطل والبطلة ـ وهما شرطى لا أدرى وعاملة هواتف فاسقة كانت تهوى الجنس الجماعى قبل أن تتوب ـ ينتهى بهما الحال على طريق صحراوى بكاليفورنيا، حيث يطاردهما فرسان سفر الرؤيا الأربعة، ثم يُخطفان إلى السماء فى يوم «الخطف» (استعان المخرج بآلة تبث الدخان وآلة تصوير متحركة على موسيقى تصويرية مقبضة لخلق تأثير بدائى). إلا أن تولكين يصور البطلة

التى قامت بدورها ميمى روجرز كمتدينة متعصبة، تقتل ابنتها الصغيرة بطلقة فى رأسها للتعجيل بإرسال الطفلة الباكية إلى السماء؛ لذا فالفيلم تشوش لاهوتى يبين أن الكل حتى غير المؤمنين وقتلة الأطفال سيتم «خطفهم» فى اليوم الأخير. وما كان لمؤمن حقيقى أن يقع فى هذا الخطأ العقائدى الجسيم.

إذن فالفكر الرؤيوى بالنسبة لمستهلكى الثقافة الشعبية لا يزيد أحيانًا عن مجرد بند فى قائمة العقائد والممارسات الدينية المتنوعة المعروضة فى أمريكا المعاصرة. يقول تيموثى ويبر: «بدأت أحدث صيحة فى الاهتمام بالنبوءات فى أوائل السبعينيات فى الفترة نفسها التى بدأ الأمريكيون فيها الاهتمام بالسحر وعلم النفس الغيبى وتحضير الأرواح وديانات الشرق والأطباق الطائرة. وقد تكون هذه الصيحة مثالاً على تعطش الأمريكيين الذى لا يرتوى لغير المألوف والغريب والمذهل»[٦٤]. ويتساءل مراقب أكاديمى آخر عما إذا كانت هذه الظاهرة «مجرد حيلة تجارية أخرى تقتادنا إلى مكتبات بيع الكتب ودور السينما ولقاءات الصحوة الدينية كى نشترى أحدث السلع لأحدث دعىّ مسيحانى»[٦٥].

قد يكون فيلم «النذير» صورة مخففة من سفر الرؤيا، لكن هذا كان على قدر ما كانت أمريكا مستعدة لاستيعابه فى سبعينيات القرن العشرين. وحتى كتاب «كوكب الأرض العظيم الراحل» كان نسخة مخففة من خطب النار والعذاب التى كانت لا تزال منحصرة فى قاعات الكنائس والبرامج الإذاعية المسيحية. ولكن مع قرب انتهاء الألفية الثانية كان مقدرًا لسفر الرؤيا أن يُستغل من جديد سلاحًا فى الحرب الحضارية التى كان يخوضها الأصوليون المسيحيون للفوز بقلب أمريكا وروحها.

ليس هناك رئيس أمريكى بعد رونالد ريجان كان صريحًا فى التعبير عن إيمانه الشخصى بقرب نهاية العالم. ومع ذلك فكل رئيس أمريكى منذ ريجان يعلن أنه مسيحى «مولود ثانيًا». فجورج بوش الابن، مثلاً، قد ينتمى للأمم المتحدة واللجنة الثلاثية ومجلس الشئون الخارجية فى مراحل مختلفة من حياته العملية الطويلة ــ وهى أجهزة أدينت جميعًا باعتبارها أدوات بيد الشيطان من قبل أنصار نظرية التآمر على أقصى يمين الأصولية المسيحية ــ ولكنه أعلن أنه مسيحى «مولود ثانيًا» أيضًا: «أنا على يقين حاسم من ذلك»[٦٦].

ترجع حاجة الساسة الأمريكيين لتأكيد مؤهلاتهم الدينية إلى تغير مناخ السياسة الأمريكية الذى طرأ فى أثناء رئاسة ريجان لا إلى إيماناتهم الروحية. فالوعاظ التليفزيونيون من أمثال چيرى فالويل مؤسس «الأغلبية الأخلاقية» وپات روبرتسن مؤسس «التحالف المحافظ» وغيرهما سعوا لنشر المتدينين كسلاح انتخابى وكمصدر للدعم المالى للساسة الذين يتبعون بعض بنود الأصولية المسيحية، كتجريم الإجهاض وإباحة الصلاة فى المدارس العامة.

فى ضوء إقرار ٤٦ بالمائة من الأمريكيين بأنهم مسيحيون إيڤانجليكيون أو مولودون ثانيًا حسب استطلاع جالوپ لسنة ٢٠٠٢م، بدأ ما يعرف باليمين المسيحى يلعب دورًا حيويًّا فى الإستراتيچية السياسية التى انتهت بتحقيق أغلبية جمهورية فى مجلس النواب وبرئيس جمهورى فى البيت الأبيض[٦٧]. وفى سنة ١٩٨٤م مثلاً، رأى الحزب الجمهورى أن من المناسب دعوة الواعظ التليفزيونى چيمس روبيسن ليقدم الدعاء الدينى فى المؤتمر الذى أعيد فيه ترشيح ريجان، ورأى روبيسن أن من المناسب أن يلقى خطبة رؤيوية حامية فى الوفود المتحمسة. قال روبيسن: «أى تبشير بالسلم قبل عودة المسيح يعد هرطقة. فهذا ضد كلمة الرب. إنه عدو المسيح»[٦٨].

وجاء مد النشاط السياسى من جانب الأصوليين المسيحيين فى أمريكا فى سنة ١٩٨٨م، حين أعلن پات روبرتسن مؤسس «شبكة البث المسيحية» نفسه مرشحًا للترشيح الرئاسى الجمهورى. وكان مسجلاً له أنه تنبأ بقرب النهاية ـ كتب فى سنة ١٩٨٠م يقول: «أضمن لكم أنه سيكون هناك حكم على العالم بحلول خريف ١٩٨٢م»[٦٩] ـ لكنه وجد من المناسب الآن أن يحد من لغته الرؤيوية، فصرح لصحيفة «وال ستريت» فى سنة ١٩٨٥م ـ وربما كان يفكر فى طموحاته الرئاسية ـ : «ما من سبيل يشعرنى بأنى سأعين الرب على إنهاء العالم»[٧٠].

كان استعداد واعظين مثل فالويل وروبرتسن لدخول معترك السياسة شيئًا جديدًا فى الأصولية المسيحية. فالفكر الرؤيوى يعتبر السياسة شيئًا تافهًا فى الأساس؛ لأن البشر لا يستطيعون أن يعملوا شيئًا لتغيير مشيئة الرب فى وضع نهاية للعالم أو تأجيلها، وبالتالى فإنقاذ الأرواح هو المهمة الصحيحة الوحيدة للمسيحى التقى؛ لذا

فإن الأصوليين المسيحيين فى أوائل القرن العشرين كانوا ينظرون لـ «الإنجيل الاجتماعى» بازدراء، ولا يزال هذا الاستخفاف بعمل الخير فى الدنيا يميز العديد من المنذرين بالشؤم من المؤمنين بقرب النهاية. يقول هال لينديسى: «لم يرسلنى الرب لأنظف حوض السمك، بل لأصيد السمك»[٧١].

إن محن العالم فى الحقيقة تعد أخبارًا سارة فى نظر المتدينين الرؤيويين ممن يتطلعون لسماء جديدة وأرض جديدة. يقول بات روبرتسن فى لحظة بعيدة عن الأضواء: «لا ينبغى لنا أن نبكى كما يبكى العالم حين تقع بعض المآسى أو سقوط حكومات العالم أو نظمه. وليس لنا أن نلوى أيدينا ونتحسر قائلين: «أليس هذا أمرًا بشعًا!» فليس هذا أمرًا بشعًا على الإطلاق. بل علامة، علامة واضحة على خلاصنا وعلى الوجهة التى يأخذنا الرب إليها»[٧٢].

لكن هناك أصوليين مسيحيين آخرين لديهم دافع لأن «يضعوا ما أمكنهم من عقبات فى طريق الشيطان إلى أن يأتى يسوع»، ما يدفعهم لبذل الجهد فى سبيل إباحة الصلاة فى المدارس والقيم الأسرية ومنع الإجهاض وزواج الشواذ والإباحية وما إلى ذلك[٧٣]. فيدين بات روبرتسن، مثلاً، الحركة النسائية باعتبارها «حركة سياسية اشتراكية ضد الأسرة تشجع المرأة على ترك زوجها وقتل أطفالها وممارسة السحر وتدمير الرأسمالية والتحول لسحاقيات». وعندما استضاف «عالم ديزنى» جمعًا فى نهاية الأسبوع يسمى «أيام الشواذ» أكد أن التهاون مع الشذوذ فى أمريكا سيؤدى إلى أعاصير وزلازل وعواصف «وربما نيازك» واستشهد بإصحاح وفقرة من سفر الرؤيا تدعمان نبوءته[٧٤].

ويعمل بعض المسيحيين ـ بالطبع ـ على تعطيل إبليس باتباع المثال الأخلاقى الرفيع للأناجيل. فچيمى كارتر، مثلاً، معمدانى مولود ثانيًا، والمعمدانية كنيسة يؤمن أعضاؤها فى مجملهم بالعقيدة الرؤيوية الصارمة لما قبل الألفية اللاهوتية. واشتهر عنه أنه عبر بصورة صارمة عن الأخلاقية المسيحية عندما اعترف لمجلة «پلاى بوى» فى سنة ١٩٧٦م، قائلا: «ارتكبت الزنا بالقلب مرات عدة» فى تلميح «لخطبة الجبل» حيث يقول يسوع فى إنجيل متى «إِنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا فَقَدْ زَنَى بِهَا فِى

قَلْبِهِ»[٧٥]. إلا أن كارتر يشتهر أيضًا بالعمل الخيرى تحت رعاية «موطن للإنسانية»، وهو عمل يشير ضمنًا ولكن برقة إلى «الرؤيا الصغرى» التى وردت بسفر متى: «لأَنِّى جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِى. عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِى. كُنْتُ غَرِيبًا فَآوَيْتُمُونِى»[٧٦].

ومن الوعاظ الأصوليين من يجيز الإيمان والعمل معًا. فيقول بيلى جراهام فى كتاب «الاقتراب من سنابك الخيل: فرسان الرؤيا الأربعة ـ Approaching Hoof beats: Four Horsemen of the Apocalypse»: «كل من يتبع المسيح مكلف بأن يعمل شيئًا للجائع والمريض فى العالم. يجب أن نعمل ما يمكننا مع أننا نعلم أن مشيئة الرب هى صنع أرض جديدة وسماء جديدة». ومع ذلك يؤكد جراهام أيضًا أن كل ما يصيب العالم الحديث من محن يمكن علاجه بصالح الأعمال، بدءًا من مرض نقص المناعة المكتسبة إلى ارتفاع حرارة الأرض التى تعد علامات أكيدة على قرب النهاية. ويقول: «يعلمنا الكتاب المقدس أن الشعوب والأمم هى التى تتسبب فى هذه الآلام لنفسها بالديانات الوضعية والحروب المفتعلة. وكل مانشيت صحيفة وكل خبر تليفزيونى وكل نشرة إذاعية تثبت حقيقة واحدة هى أن الراكب الآتى بالموت فى الطريق والنار من ورائه قريبة»[٧٧].

أى أن المؤمنين الرؤيويين يوجههم إيمانهم للرجوع للكتاب المقدس، لاكتشاف المغزى الكامن فى الأحداث كبيرها وصغيرها الدائرة من حولهم فى كل يوم. وحين يفعلون فالأرجح أن يجدوا أنه فات أوان عمل شىء إلا الدعاء أن يكونوا من الناجين عندما يصل عدو المسيح. وهو توجه فى حل المشكلات يربط مؤلف سفر الرؤيا برونالد ريجان وبملايين الأمريكيين غيره. فحين يفكرون، مثلاً، فى أحد أكثر الصراعات الإنسانية تفجرًا فى العالم ـ الصراع بين العرب واليهود على السيادة على ما تعتبره ثلاث ديانات «أرضًا مقدسة» ـ فإن بعض المسيحيين يتجهون بأعينهم إلى السماء بدلاً من تدبر الحقائق على الأرض. فقدر الشرق الأوسط الحديث فى نظرهم مسألة لاهوت لا جغرافيا سياسية، ومسقط رأس دانيال ويوحنا هو الآن المسرح الذى تدور فوقه أحداث الفصل الختامى فى الدراما الإلهية لآخر الزمان.

كما فرح جيل سابق من الصهاينة المسيحيين بإعلان بالفور وتحرير أورشليم

[القدس] على يد الجيش البريطانى فى سنة ١٩١٨م، احتفل نظراؤهم المحدثون بانتصار إسرائيل الساحق فى حرب الأيام الستة فى سنة ١٩٦٧م، وبتحرير مدينة أورشليم [القدس] القديمة. ففيها يقع جبل الهيكل موقع هيكل يهوه الأصلى، كما ورد فى الكتاب المقدس والموضع الذى سيُبنى فيه «الهيكل الثالث» فى آخر الزمان، حسب معتقدات الأصوليين اليهود والمسيحيين على السواء. والأهم أن جبل الهيكل دخل الآن تحت السيادة اليهودية لأول مرة منذ تدمير الهيكل الثانى على يد الجيش الرومانى فى سنة ٧٠ ميلادية. كتب تيم لاهاى فى كتابه «بداية النهاية ـ The Beginning of the End» وهو رسالة رؤيوية ظهرت قبل سلسلة «The Left Behind» بمدة طويلة: «إن عقارب ساعة نبوءة إسرائيل قفزت للأمام فى الثامن من يونيو ١٩٦٧م حين زحفت القوات الإسرائيلية على مدينة أورشليم [القدس] القديمة»[٧٨].

وبداية النهاية فى اعتقاد بعض الصهاينة المسيحيين تبدأ فى السنة الأربعين بعد قيام دولة إسرائيل الحديثة. وهناك مهندس صواريخ سابق بهيئة ناسا الفضائية يدعى إدجر وايزنانت ناقش هذه المسألة فى كتاب بعنوان 88 Reasons Why the Rapture Will Be in 1988 (ثمانية وثمانون سببًا لحتمية أن يحدث «الخطف» إلى السماء فى سنة ١٩٨٨م) تنبأ فيه بأن «الضيقة العظيمة» ستبدأ فى الثالث من أكتوبر ١٩٨٨م ـ «روش هاشانا» أى أول أيام السنة الجديدة فى التقويم اليهودى الدينى ـ وأن معركة أرمجدون ستنشب بعد ذلك بسبع سنوات بالتمام. وهناك واعظ مغامر قدم عرضًا بتنظيم زيارة لإسرائيل حددها بتوقيت يتزامن مع اليوم الذى يتم فيه «خطف» المسيحيين المؤمنين إلى السماء. وكان ثمن الرحلة ١٨٥٠ دولارًا شاملاً العودة «إن لزم الأمر»[٧٩]. وأعلن منشور الرحلة: «سنقيم بفندق إنتركونتيننتال فوق جبل الزيتون، وإذا كانت هذه سنة عودة ربنا ـ وهو ما نتوقع ـ فقد نصعد إلى الأعالى من بقعة تبعد بضعة أقدام من نقطة صعوده»[٨٠].

وانتهى الأمر طبعًا بأن اضطر أعضاء الرحلة لاستعمال تذاكر العودة، إلا أن عدم حدوث «الخطف» فى موعده لم يكن له أى أثر فى تهدئة حماس الصهاينة المسيحيين. فقام ما يعرف بـ «مؤسسة هيكل أورشليم» ومقرها لوس أنچيليس وتجمع التبرعات

من الأصوليين المسيحيين بجمع عشرة ملايين من الدولارات لتمويل بناء «الهيكل الثالث» بالقدس. ومما يسعد الأصوليين المسيحيين ممن يزورون إسرائيل مشهد الأصوليين اليهود وهم مجتمعون لذبح الماعز استعدادًا لاستئناف القربان الحيوانى فى الهيكل بعد إعادة بنائه، ويأخذون معهم تذكارات على شكل عملات معدنية بقيمة نصف شاقل من الفضة الخالصة حديثة الضرب يقوم بصكها أحد المستثمرين اليهود لملء خزينة «الهيكل الثالث» بعد بنائه.

ومما اجتذب ـ ولو إلى حين ـ المسيحيين الموجهة أذهانهم إلى يوم القيامة مزرعة بشمالى إسرائيل ولدت بها بقرة تدعى «ميلودى» فى سنة ١٩٩٦م. كان لون البقرة حين ولدت أحمر فاقعًا، ما أطلق موجة جديدة من التكهنات المسيحانية، فتقديم بقرة حمراء لا عيب فيها أمر ورد ذكره بسفر العدد[٨١]، ووجود بقرة تصلح لطقس القربان الحيوانى الذى طال التخلى عنه يعنى بالنسبة للأصوليين اليهود والمسيحيين على السواء أن النهاية اقتربت. إلى أن بدأ ظهور بقع من الشعر الأبيض على جلد ميلودى، ما يجعلها غير صالحة للقربان. واجتذبت ميلودى كثرة من السياح المسيحيين، وعلت أصوات الوعاظ الرؤيويين بالتساؤل عما إذا كان مقدرًا لها أن تكون أول حيوان يتم التقرب به إلى الرب على مذبح «الهيكل الثالث». وتساءل الواعظ التليفزيونى چاك ڤان إيمپ قائلا: «هل سيستعان برماد «ميلودى» فى شعائر تطهير الهيكل فى سنة ٢٠٠٠م؟»[٨٢].

هذه الأوهام الرؤيوية المتلهفة يربطها الصحافى والكاتب جريشوم جورنبيرج بعقائد شحنات السفن لدى أهل جزر جنوب المحيط الهادى الذين شاهدوا فى غبطة السفن والطائرات وهى تصل من العدم فى نظرهم محملة بكميات وافرة من الضروريات والكماليات بصحبة الوافدين الجدد من المبشرين والجنود الأوروپيين والأمريكيين. وبدءًا من أواخر القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الثانية ظل سكان الجزر يحاكون الوافدين الجدد بما يحملون من إمدادات وفيرة بصنع نسخهم البدائية الخاصة من أرصفة السفن وأبراج المراقبة من البوص وسعف النخيل على أمل أن تظهر السفن والطائرات بشكل سحرى وتسلم لهم شحنات مماثلة. وهنا نجد تنويعة أخرى

على المملكة الألفية ذات السلم والوفرة كما تصورها أناس لم يعرفوا سفر الرؤيا ـ إن عرفوه أصلاً ـ إلا من المبشرين المسيحيين. يقول جورنبيرج فى كتابه «نهاية الأيام ـ End of Days» : «بالنسبة لبعض الأصوليين اليهود والمسيحيين ـ وغالبًا من المتعلمين ـ أصبح الهيكل هو السفينة بشحناتها الكبيرة، وصك عملات نصف الشاقل يشبه بناء أرصفة السفن»[٨٣].

والتفكير السحرى يبرز دائمًا بالطبع فى الخيال الدينى بعامة وفى الفكر الرؤيوى بخاصة. فمؤلف سفر الرؤيا يفرح بتخيل الانتقام من «بابل» واشتعال النار فى حمولتها: «وَيَبْكِي تُجَّارُ الأَرْضِ وَيَنُوحُونَ عَلَيْهَا لأَنَّ بَضَائِعَهُمْ لاَ يَشْتَرِيهَا أَحَدٌ فِي مَا بَعْدُ، بَضَائِعَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَجَرِ الْكَرِيمِ وَاللُّؤْلُؤ...»[٨٤] إلا أن التفكير السحرى قد يشكل خطرًا فعليًّا على الحياة إذا ما طبق على مشروع يتسم بالدقة والخطر كإحلال السلم فى الشرق الأوسط.

يميل الصهاينة المسيحيون فى الحقيقة للنظر إلى احتمال حلول السلم بين إسرائيل وجيرانها العرب كعقبة فى طريق المجىء الثانى ليسوع المسيح، وبالتالى كعمل من أعمال إبليس. فالتعايش السلمى بين العرب واليهود يعد فى نظرهم بمثابة إرجاع لعقارب «ساعة نبوءة إسرائيل» إلى الوراء بتأجيل اليوم المحتوم الذى تعود فيه إسرائيل إلى أقصى حدودها التوراتية ويعود فيه الشعب اليهودى إلى وطنه بشكل جماعى.

فى إدانته اتفاقيات كامب ديفيد بين إسرائيل ومصر فى سنة ١٩٧٩م، يقول چيرى فالويل: «على الرغم من توقعات حكومتنا الوردية غير الواقعية، فإن هذه المعاهدة لن تدوم. فنحن جميعًا نعلم أنه لن يكون هناك أى سلام حقيقى فى الشرق الأوسط إلا حين يجلس يسوع الرب على عرش داود فى أورشليم [القدس]»[٨٥].

هذه الآراء تقرب الصهاينة المسيحيين إلى الصقور والمتشددين فى إسرائيل. فأعلن رئيس الوزراء إسحاق شامير فى جمع من الكهنة الإيڤانجليكيين فى سنة ١٩٨٨م قائلا: «إخلاصكم لبلادنا سيصبح سلاحًا قويًّا فى ترسانتنا الدفاعية»[٨٦]. وفى زيارة رسمية للعاصمة الأمريكية فى التسعينيات، اختلى بنيامين نتنياهو ـ وكان رئيسًا لوزراء إسرائيل

آنذاك ـ بچيرى فالويل قبل لقائه الرئيس بيل كلينتون. وأعلن فالويل ذات مرة قائلا: «أنا مؤمن بأن الحزام التوراتى فى أمريكا هو حزام الأمان الوحيد لإسرائيل الآن»[٨٧].

ومن إيماءات التأييد لإسرائيل من جانب الصهاينة المسيحيين ما يتسم بالتقلب بالطبع بل بالغرابة التامة. فعندما فرضت إسرائيل سيادتها على كامل القدس بعد «تحرير» المدينة القديمة فى سنة ١٩٦٧م، مثلاً، رفضت معظم الدول نقل سفاراتها من تل أبيب إلى القدس. فدفع التوبيخ الديپلوماسى قسًّا هولنديًّا يدعى يان فيليم ڤان در هويڤن لإنشاء ما سمَّى «السفارة المسيحية الدولية» بالقدس. ولم تكن هذه «السفارة» سوى «كشك» علاقات عامة، إلا أن رؤساء حكومات إسرائيل بدءًا من اليمينى بنيامين نتنياهو إلى اليسارى إسحاق رابين يجدون من اللائق أن يلقوا كلمة فى اجتماعاتها السنوية. وأعلن ڤان در هويڤن فى أحد هذه الاجتماعات قائلا: «إن المسيح الذى أؤمن به لن يأتى إلى «مسجد عمر»، بل إلى «هيكل ثالث» سيشاء الرب أن يُبنى»[٨٨].

هناك جهود أخرى ملموسة لدعم إسرائيل. فقامت جمعية «الصداقة الدولية للمسيحيين واليهود» التى يرأسها أصولى يهودى يدعى يخيئيل إيكستاين بجمع ما يزيد على ربع مليار دولار من حوالى أربعمائة ألف متبرع مسيحى دعمًا لبرامجها المختلفة، ومنها تعزيز هجرة اليهود لإسرائيل. فقال المعلق زيف تشافيطس فى صحيفة «نيويورك تايمز»: «ما من يهودى منذ يسوع نال هذا الكم من الأتباع الأغيار له»[٨٩]. وتشجع جمعية «أصدقاء الجاليات الإسرائيلية» المسيحية الكنائس فى أنحاء أمريكا على «تبنى» المستعمرات اليهودية بالضفة الغربية. وورد بأحد المنشورات أن «هؤلاء الرواد يحققون الآن عهد إبراهيم وإسحاق ويعقوب بإعادة كل الأرض التى أعطى الرب لإسرائيل»[٩٠].

وأكد بنيامين نتنياهو ذات مرة على تضامن إسرائيل مع الأصولية المسيحية ـ ورد على من يعتبرون الصهاينة المسيحيين واليهود رفقاء فراش شاذين ـ بلغة طنانة بل غنائية فى كلمته فى حفل سنوى سمى «إفطار ابتهال قومى» من أجل إسرائيل. قال نتنياهو الذى كان حينئذ سفير إسرائيل فى الأمم المتحدة: «هناك إحساس بالتاريخ، إحساس بالشعر، وإحساس بالأخلاق يميز الصهاينة المسيحيين الذين بدءوا منذ نصف قرن يكتبون

ويخططون ويعملون من أجل إعادة بناء إسرائيل. من ثم فمن يحيرهم ما يعتبرونه صداقة مستحدثة بين إسرائيل ومؤيديها من المسيحيين يجهلون كليهما. لكننا أعلم منهم»[٩١].

وما يثير الحيرة يتجاوز المفارقة السطحية لصداقة المسيحيين باليهود مع أنهم يؤمنون بأن أصدقاءهم اليهود حكموا على أنفسهم بدخول النار برفضهم الاعتراف بأن يسوع الناصرى هو المسيح. وهذه هى الشكوى التى دفعت مؤلف سفر الرؤيا إلى الإشارة إلى معارفه من اليهود بعبارة «مجمع الشيطان». إلا أن سيناريو آخر الزمان الذى يحفز الصهاينة المسيحيين لدعم إسرائيل على الساحة السياسية، يقول لهم أيضًا إن الدولة اليهودية ستتحالف فى النهاية مع عدو المسيح، ولكن حتى يدخل عدو المسيح الحرب على حلفائه و«يذبح ثلثى إجمالى عدد اليهود فى محرقة أسوأ من أى شىء عرف عن هتلر»[٩٢]. ولن تكتب النجاة فى رأيهم إلا لمن تبقى من اليهود ليعتنق المسيحية فى الأيام الأخيرة، وستظل البقية تحترق للأبد فى بحيرة من نار ومعهم الشيطان نفسه.

نادرًا ما يصرح الصهاينة المسيحيون علنًا بالدور الذى يتنبئون به للشعب اليهودى فى آخر الزمان. وذات مرة وقع چيرى فالويل مثلاً فى هذا الخطأ التكتيكى بتصريحه علنًا بأن «كثيرًا من الإيڤانجليكيين يؤمنون بأن عدو المسيح سيكون ذكرًا يهوديًّا بالضرورة»[٩٣]. ورأى من الضرورى أن يقدم اعتذارًا علنيًّا بعد أسبوعين فى أثناء إفطار ابتهال أقيم دعمًا لإسرائيل. إلا أن فالويل أبى أن يتنصل من ملحوظته ولم يعرب عن أسفه إلا عن علنية تصريحه بها. وقال فالويل غير التائب: «أنا أعتذر لا عما أؤمن به، بل عن افتقارى للباقة وحسن التقدير بالإدلاء بتصريح لا يخدم أى هدف»[٩٤].

مثل هذه المعتقدات الغريبة والقبيحة تؤذى مشاعر اليهود بالطبع، إلا أنها تلقى التجاهل من قبل العديد من زعماء اليهود ممن يرحبون بالدعم السياسى من الصهاينة المسيحيين. فيسلم أبراهام فوكسمن المدير التنفيذى لـ «رابطة مكافحة التشهير»: «بعض المسيحيين تحركهم لاهوتيًّا فكرة أن «المجىء الثانى» للمسيح من شروطه أن يظل اليهود آمنين فى الأرض المقدسة. وليس هذا سببًا يدعونا لرفضهم. فأنا أؤمن بأن اليهود إذا عاشوا آمنين فى الأرض المقدسة سيأتى المسيح لأول مرة. فأين المشكلة؟»[٩٥].

ومع ذلك، فإن بعض المراقبين اليهود مستعدون للتعليق على العلاقة الشاذة

بين المسيحيين الأصوليين واليهود. فصرح ليون ويزلتيار المحرر الأدبى لمجلة «New Republic» لصحيفة «نيويورك تايمز» قائلا: «هذه هزلية قاتمة من التنازل المتبادل. فالمسيحيون الإيڤانجليكيون يتنازلون لليهود بتقديم دعمهم لهم قبل أن يتنصروا وإلا قتلوهم. واليهود المحافظون يتنازلون للمسيحيين بقبول دعمهم وهم يؤمنون بأن إيماناتهم الغيبية محض هراء. هذا أفضل مثال على الاستغلال السياسى للدين»[٩٦].

وصل النشاط الرؤيوى فى الحقيقة إلى أعلى مستويات السياسة ورسم السياسات الأمريكية. وعندما ناقش مجلس الشيوخ ما إذا كان على إسرائيل أن تنسحب من المستعمرات اليهودية بالضفة الغربية، اعتمد عضو المجلس چيمس آينهوف ـ وهو جمهورى عن ولاية أوكلاهوما ـ على الكتاب المقدس فى تبرير الاستمرار فى احتلال الخليل. فأعلن من فوق منبر مجلس الشيوخ مستشهدًا بسفر التكوين قائلا: «إنه المكان الذى تجلى فيه الرب لإبراهيم وقال: «أنا أعطيك هذه الأرض». وهذه ليست معركة سياسية على الإطلاق. إنها سجال حول ما إذا كانت كلمة الرب صحيحة أم لا»[٩٧].

قلة قليلة من الساسة أو الديپلوماسيين أو القواد العسكريين ممن يؤمنون بمثل هذه المعتقدات لديهم من الشجاعة (أو الحمق) ما يكفى لمناقشتها صراحةً؛ لذا فمن السهل نبذ من يدافع عن استغلال الكتاب المقدس كوثيقة تعتمد عليها السياسة الخارجية الأمريكية، باعتباره شاذا دينيًّا. لكن الإيمان الحق وحرفية الكتاب المقدس كما يذكرنا عضو مجلس الشيوخ آينهوف، لم يكونا قط قاصرين على الكنائس النائية، حيث تمسك الرعية بالأفاعى ويتحدثون فيما بينهم بلغات أخرى. فالفكر الرؤيوى يطل برأسه من حين لآخر فى عناوين الصحف، ويذكرنا بأنه كامن فى الظل يتربص دائمًا.

فى ثلاثينيات القرن العشرين وجد حشد من «الأدڤنتيست أنصار اليوم السابع» بلوس أنچيليس أنفسهم يواجهون مشكلة غريبة بعد ترحيبهم بعضو جديد يدعى ڤيكتور هاوتف وهو بائع غسالات من أصل بلغارى. توصل هاوتف إلى أن المتون المقدسة المسيحية مدونة بشفرات سرية لم يفلح أحد غيره فى حلها، وقدم تعاليمه الخاصة الغريبة بدلاً من تلك التى تقدمها الكنيسة. وأخيرًا وفى سنة ١٩٣٥م، تم منع هاوتف من حضور القداس، فتزعم عشر أسر وذهب بهم إلى منفى اختيارى وعاشوا

فى تجمع على قمة تل ناءٍ بمدينة واكو بولاية تكساس حيث قبع فى انتظار أن يشهد نهاية العالم بصحبة المائة والأربعة والأربعين ألف تابع ممن تعشم أن يجتمع حوله.

ولا تزال مدينة واكو تذكرنا حتى الآن بحادثة تثبت مدى ما يمكن أن يصل إليه الفكر الرؤيوى من عناد وخطورة. ولكن فى الثلاثينيات لم يكن هاوتف وأتباعه سوى طائفة دينية شديدة الغرابة ظلت حياتهم فى أطراف تكساس النائية خافية على بقية الأمريكيين. إلا أن بذور التعادلية الخطيرة بين «فرع الداوديين» وعناصر تنفيذ القانون الاتحادى التى حدثت فى سنة ١٩٩٣م ترجع إلى أقدم حراك شهده التراث الرؤيوى فى العالم الجديد، وأسوأ تجاوزات چان بوكلسن «المسيح الملك» بمدينة مونستر فى العصور الوسطى.

أطلق هاوتف على طائفته اسم «جبل الكرمل» فى إشارة إلى الموضع الذى أمر فيه النبى إيليا بالقبض على أربعمائة وخمسين من كهنة الإله الوثنى بعل وقتلهم فى مذبحة تهدف لتمجيد رب إسرائيل[٩٨]. كان الاختيار بين الإله الحق الواحد وكل ما عداه من معتقدات وممارسات أخرى مسألة حياة أو موت بالمعنى الحرفى للعبارة بالنسبة لهاوتف وأتباعه كما كان بالنسبة لإيليا ومؤلف سفر الرؤيا. كتب أحد المراقبين زار المكان فى سنة ١٩٣٧م يقول: «يجب أن نضع فى اعتبارنا أن مسمى «جبل الكرمل» نفسه يدل على موضع نُختبر فيه عما إذا كنا سنعبد الرب أم بعلاً»[٩٩].

كان هاوتف كغيره من المنذرين بالشؤم يؤمن بأن عودة الشعب اليهودى إلى وطنه القديم شرط للمجىء الثانى، وأطلق على أتباعه اسم «الداوديين» توقعًا لإعادة عرش الملك داود. ولإبقائهم فى «حالة استعداد دائم لحدوث النهاية» أمر بوضع ساعة فى مقر الداوديين على جبل الكرمل مثبتة على الحادية عشرة «للتذكير بأن الزمن يوشك على الانتهاء»[١٠٠]. وببقائهم الدائم فى حالة «استعداد نفسى» ظل هاوتف وبقية الداوديين فى انتظار أن ينتهى العالم فى الموعد المحدد.

لم يمهل الموت هاوتف بالطبع حتى يرى أيًّا من الأحداث المشهودة التى ادعى إدراكها فى فقرات الكتاب المقدس المشفرة. وعند وفاته فى سنة ١٩٥٥م انقسمت طائفته إلى شيع متخاصمة، وأطلقت الفرقة التى انتهى الأمر بحيازتها تلك المنطقة من

واكو على نفسها اسم «فرع الداوديين». وفى ٢٢ أبريل ١٩٥٩م احتشدوا على جبل الكرمل ليشهدوا تحقق نبوءة جديدة لفلورنس أرملة هاوتف قالت فيها: «المؤمنون سيُقتلون ثم يبعثون ثم يُرفعون إلى السماء». وهناك صحفى قام بتغطية المشهد ورأى حالة الإحباط التى ألمت بمن وجدوا أنفسهم لا يزالون أحياء فى نهاية اليوم وقال: «لم يهدأ بالاً من بين الألف تقريبًا ممن كانوا هناك سوى شخص واحد: أنا»[١٠١].

وفى أواسط الثمانينيات كان «جبل الكرمل» يوشك على الانتهاء، لكن «فرع الداوديين» انتعش بوصول شاب ذى شخصية كارزمية يدعى ڤيرنن هاول، وهو «عازف جيتار شبه أمى، وعلى إلمام عالٍ بالكتاب المقدس، ولديه حافز قوى لكشف أسراره»[١٠٢]. كان هاول يحظى بلسان طلق ومرح و«قدرة على المحاكاة»[١٠٣]. بل إنه أطلق بصورة ماكرة على نفسه اسم «المسيح الخاطئ»، وجند طاقمًا من «الزوجات» من منطلق واجب فرضه على نفسه بإنجاب أكبر عدد ممكن من الأطفال[١٠٤]. وبتوليه زعامة «فرع الداوديين» أعلن دوره الجديد باتخاذه اسمًا جديدًا: «ديڤيد كورش».

كان الاسم الذى اختاره ڤيرنن هاول لنفسه مفعمًا بالمعانى التوراتية. كان القصد من اسم «ديڤيد» بالطبع تذكير «فرع الداوديين» بملك بنى إسرائيل التوراتى الذى يقال إن دمه كان يجرى فى عروق يسوع. يقول مؤلف سفر الرؤيا: «الأَسَدُ الَّذِي مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا أَصْلُ دَاوُدَ لِيَفْتَحَ السِّفْرَ وَيَفُكَّ خُتُومَهُ السَّبْعَةَ»[١٠٥]. و«كورش» اسم الإمبراطور الفارسى الذى سمح لليهود المسبيين بالعودة ليهوذا وأعاد بناء هيكل أورشليم [القدس]، فنال لنفسه بذلك لقب «المسيح» التوراتى. وبذلك صنع ڤيرنن هاول أحقية مشفرة لمسيحانيته.

كان ديڤيد كورش يؤمن كهاوتف بأنه وحده القادر على كشف أسرار الكتاب المقدس الخفية لا سيما معنى أختام سفر الرؤيا السبعة. وكما فعل چان بوكلسن فرض كورش قانونًا صارمًا من الأخلاق الجنسية ينطبق على الجميع إلا هو، وكان يتناول الأطعمة الممنوعة كالآيس كريم والحلوى علنًا بينما اقتصر أتباعه على الغذاء النباتى «حيث كانت أحكامه فى الغذاء تتغير من حين لآخر». وتورط كالأب ميلر فى

عملية تحديد المواعيد. فتنبأ بأن «الضيقة العظيمة» ستبدأ فى سنة ١٩٩٥م أى بعد «تتويجه» زعيمًا لـ «فرع الداوديين» بعشر سنوات[١٠٦]. وكمؤلف سفر الرؤيا أكد أنه «أخذته إلى السماء كائنات ملائكية» وصفها بأنها «سفينة فضائية» تسافر بالضوء، بانكسار الضوء»[١٠٧].

كان كورش يؤمن بأن العالم يشهد تحقق النبوءات التى وردت بسفر الرؤيا، كفك الأختام السبعة. واعتبر دعوته لزعامة «فرع الداوديين» نبوءة الختم الأول: «فَنَظَرْتُ وَإِذَا فَرَسٌ أَبْيَضُ وَالْجَالِسُ عَلَيْهِ مَعَهُ قَوْسٌ وَقَدْ أُعْطِىَ إِكْلِيلاً وَخَرَجَ غَالِبًا وَلِكَى يَغْلِبَ»[١٠٨]. وفى سنة ١٩٩٢م أصبح كورش يؤمن بأن أخطر نبوءات سفر الرؤيا وأشدها إبهامًا ـ أى فك الختم الخامس ـ كانت وشيكة:

«وَلَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ الْخَامِسَ رَأَيْتُ تَحْتَ الْمَذْبَحِ نُفُوسَ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْ أَجْلِ كَلِمَةِ اللهِ وَمِنْ أَجْلِ الشَّهَادَةِ الَّتِى كَانَتْ عِنْدَهُمْ. وَصَرَخُوا بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلِينَ: حَتَّى مَتَى أَيُّهَا السَّيِّدُ الْقُدُّوسُ وَالْحَقُّ لاَ تَقْضِى وَتَنْتَقِمُ لِدِمَائِنَا مِنَ السَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ؟»[١٠٩].

ربما كان يمكن لديفيد كورش أن يقضى حياته فى غموض كأحد أدعياء النبوة، لولا أنه وضع خطة تقضى بتسليح الداوديين بأسلحة آلية. وكان قد جمع ترسانة أسلحة فعلا ثم شرع فى شراء المعدات التى تمكنه من تحويل مخزون من البنادق نصف الآلية إلى أسلحة ذات معدل إطلاق أكبر كثيرًا. وهذا ما دفع عناصر إدارة مكافحة الكحوليات والتبغ والأسلحة النارية للاهتمام بما يحدث داخل المعسكر فوق جبل الكرمل. وفى ٢٣ فبراير ١٩٩٣م، شنت العناصر [القوات] الفيدرالية حملة إجهاضية كبداية لحصار استمر واحدًا وخمسين يومًا ولم ينته إلا بحريق أحال جبل الكرمل رمادًا وراح ضحيته ثمانون من «فرع الداوديين» منهم ديفيد كورش نفسه.

وفى إحدى مراحل الحصار، حصل «مكتب التحقيقات الفيدالى» على مشورة حكيمة من اثنين من أساتذة الأديان أكدا أن قراءة سفر الرؤيا عن كثب تمثل مفتاح إنهاء المواجهة مع الداوديين المدججين بالسلاح. كان واضحًا أن كورش مؤمن بأن الداوديين هم المقدر لهم أن «يُقتلوا فى سبيل كلمة الرب» عندما ينفتح الختم الخامس حسب ما

ورد بسفر الرؤيا. إلا أن الأستاذين حاولا إقناع كورش عن طريق البث الإذاعى بأن عليه أن يقرأ وينتبه للسطر التالى من سفر الرؤيا الذى يقول: «وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ يَسْتَرِيحُوا زَمَانًا يَسِيرًا»[١١٠]. ولو أمكن إقناع كورش بأن «الرب شاء للزمان «اليسير» أن يدوم حتى نهاية الحصار وإتاحة الفرصة له حتى يحاكم ثم يواصل بشارته على مستوى العالم لانتهى المواجهة سلميًّا»[١١١].

أخذ «مكتب التحقيقات الفيدرالى» المشورة بجدية لدرجة أن أدار شريطًا من البث الإذاعى على الهاتف من أجل كورش، فوافق على مغادرة معقله على جبل الكرمل بمجرد أن ينتهى من إنشاء رسالته عن معنى الأختام السبعة. إلا أن «مكتب التحقيقات الفيدرالى» لم يوافق على الانتظار طويلاً على كورش الذى كانت لديه القدرة على الإطالة بشكل غير عادى فى خطبه حتى ينتهى من أحدث شروحه. يقول تومسن عن حقبة لم يكن العالم أدرك بعد دوافع مرتكبى التفجيرات الانتحارية: «لم يكونوا يعرفون قدرة الدين على دفع سلوك الإنسان إلى نقطة يضحى عندها بكافة انتماءاته الأخرى»[١١٢].

تعرض دور سفر الرؤيا فى حصار جبل الكرمل للتجاهل، فى الوقت الذى وقع فيه الحادث، وتم نسيانه تمامًا بعده. وتم شطب الحادث المؤسف برمته باعتباره مواجهة مؤسفة بين عناصر شرطية مندفعة وبعض المهووسين الدينيين، وتعجل الطرفان حسم النزاع بقوة السلاح. ولكن ما كانت المأساة لتحدث أصلاً وما كان «فرع الداوديين» ليظهروا للوجود أصلاً لولا ما للفكر الرؤيوى من سطوة غريبة. فسفر الرؤيا يحمل فى طياته «حمولة خطيرة» كما رأينا وسنرى، فحتى أروع الأحلام بسماء جديدة وبأرض جديدة لها جانب مظلم.

لنتأمل ـ على سبيل المثال ـ الظاهرة الإعلامية المتميزة التى تعرف بسلسلة «المتروكون خلفًا ـ The Left Behind» والتى تفجرت فى الثقافة الشعبية الأمريكية مع بدء انزواء ذكريات واكو الأليمة.

عند ما قام تيم لاهاى بنشر رسالة بعنوان «بداية النهاية ـ The Beginning of the End» فى سنة ١٩٧٢م، كان مجرد منذر آخر بالشؤم من الوعاظ المتقدين، يسعى

لإقناع قرائه بأن نهاية العالم وشيكة. فقدم جرعة قوية من فكر ما قبل الألفية التدبيرية لا تختلف بأى حال عما بشر به چون نلسن داربى أو الأب ميلر فى أيامهما. كتب لاهاى يقول: «قد نكون الجيل الذى يرى ذروة العصور ويعاصر مملكة المسيح. ولا شك أن لدينا أدلة تاريخية على هذا الاحتمال تفوق أى جيل من المسيحيين على مدار ما يقرب من ألفى سنة. وأنا فى الحقيقة أعتقد أن الكتاب المقدس به ما يدل على أننا نعيش بداية النهاية»[١١٣].

وفى سنة ١٩٩٥م، اتخذ لاهاى وضعًا مختلفًا تمامًا فى المشهد الثقافى حيث كتب «بالمشاركة مع چيرى چنكنز» سيناريو فيلم رعب رؤيوى مبتذل بعنوان «Left Behind». والمضمون هو نفسه تمامًا، أما الشكل فيختلف تمام الاختلاف. وكفيلم هابط يعرض «Left Behind» شخصيات مبتذلة وخلفيات غريبة وحبكة سريعة مما نتوقع أن نجد فى أحد أعمال روبرت لودلوم. وبغض النظر عن أن كتاب «Left Behind» من نشر دار تيندال المعروفة بنشر العناوين المسيحية الأصولية، فليس هناك على الغلاف أو ظهره ما ينم عن حقيقته كرسالة لاهوتية متخفية. إلا أن أولى فقرات الكتاب تعرِّف القارئ بعقيدة «الخطف»، حيث يكتشف البطل وهو طيار تجارى يدعى رايفورد ستيل أن نصف ركاب طائرته البوينج ٧٤٧ غادروها فى منتصف الرحلة. فيصرخ أحد المضيفين فى هياج قائلا:

«لستُ مختلاً! انظر بنفسك فى الطائرة كلها، الناس اختفوا».

«هذه نكتة، إنهم مختبئون، يحاولون أن»

«راى! أحذيتهم، جواربهم، ثيابهم، كل شىء تركوه وراءهم. هؤلاء الناس اختفوا!»[١١٤].

وهكذا بدأ مشروع إعلامى ناجح حسيًّا يبين قوة تأثير الفكر الرؤيوى فى أبسط وأنقى أشكاله. وأفرخت سلسلة «Left Behind» وهى سرد مطول لـ«الضيقة العظيمة» وعجائب عدو المسيح سلسلة من الروايات، بل إمبراطورية من الوسائط المتعددة من كتب وهزليات ونشرات إخبارية وسمعيات وبصريات وموقع على شبكة الإنترنت بعنوان «نادى نبوءات المنسيين». وأنتج الناشر منه سلسلة مستقلة للقراء

الصغار بعنوان (المنسيون: الصغار ـ Left Behind: The Kids) ويتألف حاليًّا من أربعين عنوانًا إضافيًّا. وبينما اعتبر هال ليندسى أكثر المؤلفين مبيعًا فى السبعينيات لبيعه عشرين مليون نسخة من كتاب «كوكب الأرض العظيم الراحل» يقال إن سلسلة «Left Behind» باعت أكثر من خمسين مليون نسخة منذ صدور أول عنوان منها فى سنة ١٩٩٥م. ولا تزال النهاية لم تأت بعد.

ودوافع لاهاى فى إعادة صياغة سفر الرؤيا كفيلم رعب لا تقتصر على الجشع والارتزاق. فقبل حصوله على اللقب الجديد كأفضل الروائيين مبيعًا، كان لاهاى يحظى بنجاح باهر كقس ومعلم وواعظ تليفزيونى، وأحد أبرز الشخصيات فى السياسة المسيحية. ويصفه چيرى فالويل بأنه «الدافع وراء مولد اليمين الدينى»[١١٥] وعمل كمدير مشارك للحملة الرئاسية الفاشلة للجمهورى المحافظ چاك كيمب على الأقل إلى أن طُلب منه أن يستقيل بعد أن ورد عنه أنه وصف الكاثوليكية الرومانية بأنها «ديانة زائفة»[١١٦].

وبغض النظر عن سلسلة «Left Behind» فإن كتب لاهاى الخمسين تشمل رسائل تدين الأمم المتحدة والشذوذ و«النزعة الإنسانية العلمانية» وغيرها من مكروهات الأصولية المسيحية. و«قدم فى المقام الأول جدول أعمال للمحافظين يضم قضايا عدة كالإجهاض والإباحية ونظرية الخلق والصلاة فى المدارس والتعليم العام كمرتع للعلمانية والليبرالية» حسب قول پول بوير[١١٧]. ويعترف لاهاى نفسه بأن سلسلة «Left Behind» تعد سلاحًا آخر فى الصراع على قلوب إخوانه الأمريكيين وعقولهم.

ورد عن لاهاى أنه قال فى لقاء معه: «نحن فى حرب ثقافية فى هذا البلد، وهناك رؤيتان للعالم، تقوم إحداهما على كتابات الإنسان والأخرى على كتابات الرب. وهما رؤيتان متعارضتان»[١١٨].

لذا فإن حلقات سلسلة «Left Behind» تعتنق اللاهوت الثنائى ـ ومنطق السعى للانتقام ـ الذى يتأجج فى سفر الرؤيا. فكل تعقيدات العالم الحديث تتم إزاحتها ليحل محلها الصراع البسيط بين الرب والشيطان، وهى استعارة أخرى من سفر الرؤيا. ومع بدء «الضيقة العظيمة» فى حبكة سلسلة «Left Behind» تشرع قلة من المسيحيين ممن

تخلفوا عن «الخطف» فى الانضمام إلى الصراع ضد عدو المسيح الذى يتخذ شكل سياسى يهودى داهية يتخذ من العراق الحديث «موقع بابل القديمة» مقرًا له.

يقول جيرشوم جورنبيرج فى عرض لسلسلة «Left Behind» نشر فى «المشهد الأمريكى ـ The American Prospect»: «إنهم يشجعون نظريات المؤامرة ويضفون السمات الشيطانية على الحد من التسلح والنزعة المسكونية وحقوق الإجهاض وعلى كل من لا يعجب اليمين المسيحى»[١١٩]. ولا يفوق عداءهم لليهود إلا عداؤهم للكاثوليكية. وهم يرفضون فكرة الحوار الديمقراطى المفتوح. وهناك حقيقة واحدة فى عالم «Left Behind» تقوم على قراءة حرفية للنصوص المقدسة؛ وكل من يخالف تلك الحقيقة إما مضلل أو شرير[١٢٠].

وليس من قبيل المصادفة أن بلغت سلسلة «Left Behind» الذروة فى اللحظة التى تنبه فيها العالم الغربى للخطر الجديد الذى حل محل «إمبراطورية الشر» فى حقبة ريجان، أى الإسلام الجهادى ولا سيما الإرهاب الدينى وانتشاره على نطاق غير مسبوق. وفجأة تحول كل قديم إلى جديد مرة أخرى؛ فرمز الإسلام كان يعد مرشحًا لأن يكون عدو المسيح قبل الثورة البلشفية بأكثر من ألف سنة. وحين شنت أمريكا الحرب على العراق، أصبح الصراع الذى اعتبره چورچ بوش الابن «صدام أيديولوچيات» مرة أخرى حربًا بين «الحمل» و«الوحش».

فى الوقت الذى سعى فيه چورچ بوش الابن للرئاسة، كان ربط السياسة بالدين فى أمريكا اكتمل تقريبًا. وبعد أن تحول إلى مسيحى مولود من جديد على يد بيلى جراهام بعد عطلة نهاية أسبوع مخمورة فى عزبة آل بوش فى سنة ١٩٨٥م، أصبح يعتمد على كتلة أصوات الأصوليين. وحين سئل فى مناظرة بين مرشحى الرئاسة الجمهوريين فى سنة ١٩٩٩م عن فيلسوفه السياسى المفضل، أجاب: «المسيح» وبدأ يشرح قائلا: «عندما تتحول بقلبك وبحياتك إلى المسيح، وحين تتقبل المسيح مخلِّصًا لك، فإن هذا يغير قلبك ويغير حياتك»[١٢١]. وما إن وصل إلى البيت الأبيض فى سنة ٢٠٠١م، حتى أطلق بوش «مبادرة قائمة على الدين» لتمويل برامج الإعانة الاجتماعية لمختلف التنظيمات الدينية.

كتب الصحافى رون سسكند فى «نيويورك تايمز» يقول: «كان مؤسسو الدولة لا يزالون يألمون من الممارسات الدينية العقابية التى سادت دول أوروبا، فشددوا على إقامة جدار بين الدين المؤسسى والسلطة السياسية. ولكن فجأة بدأ چورچ بوش الابن... يغير المنصب نفسه، فابتدع الرئاسة القائمة على الدين»[١٢٢].

لا يميل بوش للأحكام الرؤيوية من النوع الذى كان ينساب على لسان رونالد ريجان دون رابط. فهو يؤثر عبارة «التغيير الحضارى» على «حرب الحضارات»[١٢٣]. لكن بوش صريح عما يعتبره أهداف «التغيير الحضارى» كالإجهاض وزواج الشواذ وأبحاث الخلايا الجذعية الجنينية والحظر الدستورى للصلاة فى المدارس العامة. ويتبنى نغمة أقرب إلى الحرب فى وصف المهمة التى كلف بها نفسه. فقال فى لقاء مع ممثلى مطبوعات دينية عدة: «المبادرة القائمة على الدين تدرك أن هناك جيشًا من المشاعر يحتاج لتغذية وتعبئة واستدعاء وتمويل دون تجريد الجيش من هويته كجيش فى المقام الأول»[١٢٤].

وإذا كان بوش لا يتكلم بلغة الأصولية الرؤيوية المألوفة فهذا يرجع لوجود «ترسانة لغوية» جديدة ومنقحة تم شهرها فى أمريكا المعاصرة. فما كان يعرف بـ«نظرية الخلق»، مثلاً، أصبح يسمى «التصميم الذكى» ــ وهى عبارة شفرية لا تختلف فى معناها ـ ويرى بوش أن «التصميم الذكى» ونظرية التطور العلمية كلاهما ينبغى أن يدرَّسا فى المدارس العامة. وما يسميه الأطباء «رحمة إنهاء الحياة» يدان الآن باعتباره «قتلاً رحيمًا»، ودعا بوش لالتزام قومى بـ«ثقافة حياة يلقى فيه كافة الأمريكيين الترحيب والتقدير والحماية، لا سيما من يعيش منهم تحت رحمة غيره».

ومسألة أن بوش ليس واعظًا يتوعد بالكتاب المقدس تعد فى حد ذاتها سببًا لقلق المراقبين على جانبى الحرب الحضارية؛ لأنهم يتشككون فى أنه يخفى معتقداته الحقيقية وحسب. يقول المؤرخ وكاتب التراجم جارى ويلز فى صحيفة «نيويورك تايمز»: «إن القصر الحاكم فى البلاد تقوضه حاليًّا جماعات الصلوات وخلايا تدارس الكتاب المقدس، كأنه دير أبيض. ومن التعبيرات المرحة فيه عبارة: افتقدناك فى درس الكتاب المقدس»[١٢٥]. وبوش ـ كما نعلم ــ لا يبين اللافتة التى يمكن رؤية مثلها فى مكتب

عضو مجلس النواب السابق توم ديلاى والتى تقول «اليوم قد يكون اليوم الموعود!»[١٢٦] لكن الشك الأخرس بين بعض نقاد بوش أنه قد يشارك سرًّا فى الإيمان بالتوقع الملح نفسه.

ومن الغريب أن مثل هذه الشكوك تنعكس لدى خصوم بوش على الحافة البالية للأصولية المسيحية. فربما كان بوش الأب يباهى بأنه مسيحى مولود من جديد، إلا أن عمله فى الأمم المتحدة و«هيئة الاستخبارات المركزية» و«اللجنة الثلاثية» تؤكد أسوأ مخاوف أنصار نظرية المؤامرة. وعندما جاء بوش الابن فإن مسألة انتماء كل من الأب وابنه لنادى «سكال آند بونز (الجمجمة والعظام)» وهو نادٍ للخريجين بجامعة ييل يعرف غالبًا باسم «الجمعية السرية» اتخذت مغزى شيطانيًّا. يقول پات روبرتسن فى كتابه «النظام العالمى الجديد ـ The New World Order»: «إن الرجال من ذوى النوايا الطيبة كوودرو ويلسن وچيمى كارتر وچورچ بوش ينفذون المهمة دون أن يدروا، ويغمغمون بدسيسة محكمة هدفها إيجاد نظام جديد للجنس البشرى يقوده إبليس وأعوانه»[١٢٧].

إن أى سياسى يعتنق الفكر الرؤيوى سواء فى العلن أو فى الخفاء، يخطو نحو الشرَك نفسه الذى وقع فيه رؤساء كچورچ بوش سواء الأب أو الابن. يقول أستاذ السياسة مايكل باركون: «الحركات الألفية لا فكاك لها من الفكر التآمرى، فهى تقسم العالم بصورة صارمة إلى خير وشر، مستحق للخلاص وملعون. ويشكل الشر فيها تهديدًا ماثلاً أبدًا لا تزيله تماما إلا نهاية التاريخ»[١٢٨]. إلا أن مسألة تحديد مَن الخير ومن الشرير ومن مستحق الخلاص ومن الملعون تختلف من شخص لآخر، كما اكتشف كلٌّ من بوش الأب وبوش الابن.

اليوم وبعد عشرين قرنًا من ظهور سفر الرؤيا لأول مرة فى عالمنا الممزق، فإن كلمات چيروم تصدق حاليًّا أكثر مما كانت حين نطق بها أول مرة فى القرن الرابع: «إن سفر الرؤيا به من الألغاز قدر ما به من كلمات»[١٢٩] ونضيف من عندنا: ومن الأخطار أيضًا.

ومن القراء من يرى فى سفر الرؤيا بيانًا ملتهبًا للحرية ودعوة للتحرر فى الحياة الدنيا. «فكتاب «رسالة من سجن بيرمنجهام ـ Letter from a Birmingham Jail»

لمارتن لوثر كينج، يعكس آمالاً تشبه لاهوت سفر الرؤيا» حسب قول العالمة الكاثوليكية إليزابيث شوسلر فيورنتسا، وهي لاهوتية ورائدة نسائية ترى «لمحة من أورشليم [القدس] الجديدة» في عبارة كينج الرنانة «يراودني حلم» التي وردت في خطابه الذي ألقاه في نصب لنكولن التذكاري في سنة ١٩٦٣م(١٣٠). والشاعر والكاهن المتطرف دانييل بيريجان خطرت له بعد القبض عليه لحفره قبرًا في حديقة البيت الأبيض، من باب الاحتجاج السياسي، فكرة كتابة شرح خاص به على سفر الرؤيا في زنزانته بأحد سجون العاصمة الأمريكية.

يحثنا الأب بيريجان الراديكالي والشاعر على اعتبار سفر الرؤيا نصًّا يدعو للتحرر لا نصًّا مخيفًا أو يدعو للكراهية. ويقول في ملحوظة ساخرة في كتابه «كابوس الرب ـ Nightmare of God» إن «سفر الرؤيا يستحق الحرق، فهو مدمر بكل تأكيد. فدولة المؤسسات [مؤسسات الأعمال (أي البيزنيس)] تدمر الأرض وتشتت العقول وتفسد شتى مجالات العلم بمغامراتها العسكرية والاقتصادية التوسعية. انظر إلى روما سفر الرؤيا. وانظر لأمريكا!»(١٣١).

وهناك قراء آخرون يرتفعون بسفر الرؤيا إلى مكانة أسمى وأكثر أثيرية. فعالم اللاهوت چاك إيلول، مثلاً، تنسب إليه قراءة خَلاصية بحتة لسفر الرؤيا تجرد النص من كل ما فيه من رعب. يقول داريل فاشينج، وهو باحث في التاريخ تخصص في دراسة الدين والعنف: «بدلاً من إعلان نهاية كارثية للتاريخ كقدر محتوم علينا، يرى من جانبه أن سفر الرؤيا هو رؤيا حرية الرب، وهي تعمل في التاريخ كما حققها الأمل الإنساني الجامح». وحين يقارَن بقراءات سفر الرؤيا المتزنة والأنيقة فإن التكهن الرؤيوي القاسي في كتابات هال ليندسي «يعد فاحشًا على أقل تقدير»(١٣٢).

ويقول فاشينج في كتابه «التحدي الأخلاقي لآوشفيتز وهيروشيما ـ The Ethical Challenge of Auschwitz and Hiroshima»: (إن هال ليندسي ينخرط في نوع من تأويل النصوص المقدسة أدانه أوغسطين ذات مرة بحق بوصفه بعبارة fantastica fornicatio التي يمكن ترجمتها بعبارة مهذبة هي «استمناء ذهني» أو بعبارة أقل تهذيبًا «الفسق بالرموز المقدسة»)(١٣٣).

إلا أن الخطر في قراءة سفر الرؤيا أكبر كثيرًا من مسألة فسق ذهني. فالنص

التحريضى المتعمد ـ كما رأينا ـ قادر على دفع بعض الناس إلى السعار، وبعض آخر للقيام بأعمال عنف، وبعض ثالث لكليهما معًا. وربما كان القصد منه أن يكون كذلك. يقول مايكل باركون فى كتابه «الكارثة والألفية ـ Disaster and the Millennium» : «من الصعب معرفة ما إذا كانت التكهنات الكئيبة بالرؤى النبوئية تمثل خوفًا فعليًّا من تحققها أم نوعًا من الانبهار السلبى بها. وقد تعمل من ناحية أخرى وبصورة خفية كنبوءة تتحقق ذاتيًّا وتجر فى أثرها الأحداث الرهيبة نفسها»[١٣٤]. وليس هناك تفسير أفضل من ذلك للتأثير الضار لسفر الرؤيا على رجل مثل ديڤيد كورش وما حدث فى واكو.

لذا فإن بعض القراء يتراجعون فى هلع عند مشاهد القتل الرهيبة التى تترك لسفر الرؤيا مذاقًا مرًّا بل سامًّا بعد قراءته. يقول الباحث التوراتى اليهودى والمترجم روبرت ألتر الذى خرج من النص القديم برؤى جديدة وكاشفة: «ما من نص آخر فى العهدين القديم والجديد يتسم بهذه الدرجة من اللاإنسانية واللامسئولية الروحية. فلا مكان للناس بصورتهم الحقيقية فى سفر الرؤيا، فعندما يتعمد الكاتب أن يجمع الناس فى جموع حاشدة فى انتظار أن يلقَى بهم فى حفر من كبريت فلا حاجة له بالنظر إلى وجوه فردية...»[١٣٥]. والقصد من العبارة التى يختارها ألتر لوصف ما يرى فى سفر الرؤيا ـ «جموع حاشدة فى انتظار أن يُلقى بهم فى حفر» ـ تذكيرنا بالمذابح التى حدثت فى الحرب العالمية الثانية.

والصلة بين سفر الرؤيا والمحرقة لاحظها كثير من القراء المحدثين. فالفاشيون والماركسيون فى أواسط القرن العشرين اعتنقوا الفكر الرؤيوى مجردًا من شراكه التوراتية وبمفردات جديدة تمامًا. فكان كل من هتلر وستالين من المؤمنين المتحمسين ممن أقنعوا أنفسهم بأنهم مكلفون بخلق فردوس على الأرض بتدمير النظام القديم وإحلال آخر جديد محله. وهكذا رسم بعض الرؤيويين خطًّا يجرى من المؤمنين الرؤيويين الحقيقيين الأوائل فى التراث اليهودى / المسيحى ـ قراء دانيال والرؤيا وسامعوهما ـ والسفاحين الذين استهدفوا الشعب اليهودى إبان المحرقة. يقول داميان تومسن: «من المفارقات الغريبة أن النازية اتخذت عن غير وعى منظومة معتقدات طورها اليهود جزئيًّا وإن لم يبتدعوها. فلا شك أن حكم القديسين لألف سنة يكمن وراء الرؤية الخاصة

بإقامة رايخ يدوم ألف سنة، ولكن كان من المؤثرات الأهم على النازيين صورة عدو المسيح فى سفر الرؤيا كعدو مرن لدرجة يستحيل معها هزمه إلا فى حرب كونية»[١٣٦].

والحقيقة أن الفكرة الرؤيوية اعتُبرت مسئولة عن الهلع الذى أصبح يرمز للقدرة البشرية على ممارسة العنف الكارثى فى العالم الحديث: قتل ستة ملايين رجل وامرأة وطفل من اليهود فى المحرقة، وموت عدة مئات الآلاف من اليابانيين(*) حين ألقيت قنبلة ذرية على هروشيما وأخرى على ناجازاكى فى الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الثانية. وكان الضحايا جميعًا أبرياء من أى ذنب. ولكن ما أن نعتبر أى عدو وحشًا شيطانيًّا لا أخًا فى الإنسانية ـ كما يبشر سفر الرؤيا ـ فإن القتل يمكن اعتباره أمرًا له ما يبرره، بل ثأرًا مقدسًا.

ولا يقتصر الفكر الرؤيوى وتبعاته الخطيرة على التراث اليهودى / المسيحى. فالساعة آتية كما ورد فى إحدى آيات القرآن تصور وحشًا وفواجع كونية عدة ــ منها انفطار السماء وانتشار الكواكب وتفجر البحار ــ كعلامات يوم القيامة حين تتبعثر القبور. وربما كانت الصورة القرآنية عن آخر الزمان ــ كما يقول سعيد أمير أرجمند الباحث المتخصص فى تاريخ وعلم اجتماع الإسلام ـ مستوحاة من رؤيا الختم السادس بسفر الرؤيا(**).

(*) حين يتعلق الأمر باليهود نجد كتّاب الغرب فى غاية الدقة: «ستة ملايين يهودى». أما أى ملة أخرى من البشر فتقاس بـ«عدة مئات الآلاف». كل ما نطلبه من القارئ أن يفكر للحظة فى رقم الستة ملايين، وهناك دراسات كثيرة يهودية وغير يهودية تهبط بهذا الرقم إلى سدسه وأقل، بينما يصل عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية لعشرات الملايين ـ المترجم.

(**) آية الدابة هى ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [النمل: ٨٢]، أما القيامة، فالآيات التالية تبين أن علمها عند الله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان: ٣٤]، ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النازعات: ٤٢ ـ ٤٤]، أما ربما التى يقول بها سعيد أمير أرجمند فهى لا تكفى لإثبات ما يقول، وما يثبت هو الأدلة والحجج ـ المترجم.

والتصور الرؤيوى سواء أكان منشؤه الإسلام أو المسيحية أو اليهودية دائمًا ما يدفع بعض الناس لممارسة نزواتهم الانتقامية على حياة إخوانهم من البشر. فنبه أسامة بن لادن العالم لنواياه الانتحارية حين استشهد بحديث ينسب لمحمد فى لقاء أجرى معه قبل ١١ سبتمبر بسنتين: «تُقَاتِلُونَ الْيَهُودَ حَتَّى يَخْتَبِئَ أَحَدُهُمْ وَرَاءَ الْحَجَرِ فَيَقُولُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِى وَرَائِى فَاقْتُلْهُ»[١٣٨](*).

هذا إذن مثال آخر على الجانب المظلم من الفكر الرؤيوى، وهو الخوف من «الآخر» والتقزز منه والإصرار على تخيير «الآخر» بين التحول أول الموت. إلا أن الفكرة نفسها تطالعنا فى التراث الرؤيوى اليهودى والمسيحى. فكان چيرى فالويل يؤمن بهذا المفهوم المقيت نفسه حين تساءل علنًا عما إذا كان الرب سمح للإرهابيين بتنفيذ هجماتهم فى ١١ سبتمبر عقابًا لأمريكا على موقفها المتهاون تجاه الوثنيين ومؤيدى الإجهاض وأنصار الحركة النسائية والشواذ والسحاقيات وحركة «أناس من أجل النهج الأمريكى»[١٣٩]. ورد عن الفيلسوف الشعبى إريك هوفر (١٩٠٢ ـ ١٩٨٣م) إبان ذروة تعقب الشيوعيين بالحقبة المكارثية: «قد تنشأ الحركات الجماعية وتنتشر دون إيمان بإله، ولكنها لا تخلو من إيمان بشيطان ما»[١٤٠].

يؤكد سفر الرؤيا ـ كما رأينا ـ أن الجنس البشرى يواجه دائمًا اختيارًا بسيطًا بين الخير والشر، بين الحمَل والوحش، بين الرب والشيطان، وسوء الاختيار يعاقب لا بالموت وحده بل باللعنة الأبدية. وكغيره من أشكال التعبير عن عمق الإيمان الدينى التى تنظر إلى تنوع العقائد والممارسات الدينية الإنسانية وتعتبرها جميعًا خطأ وخطيئة وجريمة إلا واحدة، فإن الفكر الرؤيوى قد يرتبط بالخيال الإنسانى. لكن التاريخ المأساوى الطويل والغريب لسفر الرؤيا ـ تاريخ الوهم ـ يثبت أنه فكر قاس دائمًا ومميت أحيانًا.

(*) لم يلق اليهود معاملة أفضل من التى لقوها بين المسلمين والعرب والأتراك، وتاريخهم فى الشرق الأوسط وفى الأندلس وفى تركيا شاهد على ذلك. ويمكن لمن يريد أن يقرأ ما قاله يورى أڤنيرى اليهودى الإسرائيلى (عضو الكنيست لدورتين) فى رده على البابا بندكيت، وذلك فى موقعه:
http://zope.gush-shalom.org/home/en/...ry/1159094813/
كما أن الموقع الأصلى لنشر المقال وفّر نسخة مترجمة للعربية وهذا هو الرابط:
http://www.gush-shalom.org/arabic/archive/258.html

ليست كل عقيدة رؤيوية تعبر عن نفسها بكلمات سفر الرؤيا وعباراته المألوفة بالطبع. فالحركة التى تعرف بـ «رقصة الأشباح» والتى نشأت بين قبائل الأمريكيين الأصليين على الحد الغربى فى أواخر القرن التاسع عشر كانت تركز على نسخة محلية من فكرة المملكة الألفية: «أرواح الموتى ستعود، وسيكثر عدد الجاموس مرة أخرى وسترتجف الأرض»[١٤١]. وفى ذروة الحركة كان دعىّ نبوة أتباع «رقصة الأشباح» وهو شخصية مسيحانية يدعى «ووفوكا» يبشر أتباعه بأن ارتعاشاتهم ستدفع أرواح الأجداد لطرد المستعمرين البيض ممن يشكلون خطرًا على الأمريكيين الأصليين ويهددونهم بالفناء الحضارى والمادى.

وحتى أتباع «رقصة الأشباح» كانوا يَدينون بشىء للتراث الرؤيوى والمسيحانى فى المسيحية واليهودية الذى يبدو أنهم عرفوه من المبشرين المسيحيين وترجموه إلى ثقافتهم الروحية الخاصة. واكتشف أتباع «رقصة الأشباح» بأنفسهم الخطر الذى يتهدد الوعاظ الرؤيويين وأتباعهم دائمًا بما فيهم المكابيون و«المتعصبون» والمسيحيون الأوائل. وكانت السلطات العسكرية التى كانت مكلفة بحفظ القانون والنظام على الحدود، تعتبر حركة «رقصة الأشباح» نوعًا خطيرًا من التمرد، وقرروا القضاء عليها فى سلسلة من الحملات التأديبية التى بلغت ذروتها بالمذبحة الشهيرة التى وقعت فى «ووندد نى» فى سنة ١٨٩٠م.

والحقيقة أن أتباع «رقصة الأشباح» ينطبق عليهم النموذج النظرى الذى ينطبق على سفرى دانيال والرؤيا وغيرهما من الكتابات الرؤيوية القديمة. فالوعد بقرب نهاية العالم ـ كما رأينا ـ من المفترض أن المقصود به «شد أزر المؤمنين فى وقت الشدة والاضطهاد» ومواساة «من يعانون ويسودهم الخوف»[١٤٢]. وهذه الكلمات تصف بدقة ورطة الأمريكيين الأصليين ممن كانوا يؤدون «رقصة الأشباح» لطرد المستعمرين البيض الذين كانوا يشنون ضدهم حربًا حضارية، بل حرب إبادة. بل إن أتباع «رقصة الأشباح» ينطبق عليهم وصف ضحايا الضيقة والاضطهاد أكثر من البيوريتانيين، مثلاً، أو أتباع ميلر أو الأصوليين المسيحيين فى عصرنا الراهن، إذ عاش هؤلاء جميعًا فى رغد وراحة وأمان.

لذا فإن الباحثين وجدوا لزامًا عليهم أن يضبطوا النموذج الرؤيوى بالإشارة إلى أن الاضطهاد قد يختلف تعريفه من شخص لآخر. تقول آديلة ياربرو كولنز عن الرجل الذى وضع سفر الرؤيا: «مهما كان وضعه الاقتصادى، فإن المؤلف أو الناسخ يشعر بأنه وقع ضحية ظلم»[١٤٣]. وقد يشتاط من يتصور نفسه ضحية غضبًا على من يعتبره أفضل منه حالاً، وهى ظاهرة يسميها الباحثون «الحرمان الدينى» أو «الأسى على الحال»[١٤٤]. وقد ينزعج الضحية من تغيير ثقافى أو سياسى ما، لا يسمح إيمانه وغيرته على عقيدته له بالتواؤم معه، وهو وصف قد يصدق تمامًا على قراء سفر الرؤيا وسامعيه الأوائل وعلى الأصوليين المسيحيين الأفضل حالاً فى أمريكا الحديثة. وتعتبر الظاهرة الرؤيوية برمتها أقرب إلى الاضطراب النفسى منها إلى الدعوة الروحية. يقول داميان تومسن ساخرًا: «إن الألفيين الكلاسيكيين من فلاحى العصور الوسطى الذين كانوا يجلدون أنفسهم بالسياط، إلى أتباع «رقصة الأشباح»، هم فى الغالب أناس أقرب إلى العته بمعناه الإكلينيكى»[١٤٥].

وهكذا وصل الأمر بأعضاء طائفة «بوابة السماء» بجنوب كاليفورنيا أن آمنوا بأن هناك سفينة فضاء مختبئة فى ذيل مذنب هيل بوب، وعلى متنها كائنات فضائية فى مهمة لتدمير الأرض، وأقنعوا أنفسهم بأنهم يستطيعون الإفلات من الرؤيا بركوب طائرة أعلى. وحزم تسعة وثلاثون من أعضاء الطائفة متاعهم وانتعلوا أحذيتهم الجديدة وملئوا جيوبهم بأوراق النقد من فئة الخمسة دولارات وقطع أرباع الدولار، ثم شربوا عصير التفاح مخلوطًا بأقراص مهدئة ووضعوا رءوسهم فى أكياس بلاستيكية حتى يضمنوا الموت اختناقًا إن لم يقتلهم السم الذى تجرعوه أولاً. وكان مصدر إلهامهم خيالاً علميًّا لا نصًّا مقدسًا بالطبع، إلا أن هذه الطائفة أيضًا تبين التأثير الرهيب للفكر الرؤيوى (والإعلام المكثف) على العقل المضطرب. يقول أحد أعضاء طائفة «بوابة السماء» فى رسائل مصورة تركوها وراءهم فى سنة ١٩٩٧م: «نحن نشاهد «ستار تريك» و«حرب النجوم» كثيرًا، وحان الوقت لوضع ما تعلمناه موضع التطبيق»[١٤٦].

ويستحيل أن نميز أحيانًا بين الرؤيا والخلل النفسى والقتل الجماعى. فالطائفة اليابانية المعروفة بـ«شينريكيو»، مثلاً، تعتنق مزيجًا غريبًا من المعتقدات البوذية

والهندوسية والتاوية، إضافة إلى «تنبؤات من سفر الرؤيا، وجرعة من نظرية المؤامرة ضد السامية»[١٤٧]. ويقال إن مؤسسها شوكو أساهارا كان يبشر أتباعه بأن معركة أرمجدون وشيكة، ويأمرهم بجمع ترسانتهم الخاصة من الأسلحة الكيماوية والبيولوچية. وفى سنة ١٩٩٥م اختبروا أسلحتهم بوضع علب غاز الأعصاب بمحطات المترو بطوكيو فقتلوا اثنتى عشرة ضحية وأصابوا الآلاف.

يقول يسوع: «لأَنَّ الْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ»[١٤٨] ولعله كان سيقول كذلك عن المنذرين بالشؤم أيضًا. وسيظل معظمهم مختفين عن أنظار بقيتنا عالقين فى أوهامهم المعقدة الغامضة عن معانى الكتاب المقدس الخفية. وسيواصل غيرهم الإعلان عن رؤاهم فى المطبوعات وفى الإذاعة وفى التليفزيون وعلى شبكة الإنترنت، فالبحث عن «سفر الرؤيا» على محرك جوجل، مثلاً، يأتى لك بأكثر من ١,٦ مليون مدخل. والقليل منهم بالطبع من يفلح فى لفت العالم كله ولو لخمس عشرة دقيقة بالإقدام على عمل رهيب ما، سواء كان انتحاريًّا أو قاتلاً لآخرين بقصد التعجيل بنهاية العالم.

أنا أعرف النهاية، عبارة تلخص العقيدة التى تظهر فى أول جملة فى السفر الذى تطالعه الآن، أما مسألة لمن تكون الكلمة الفصل فهذا أمر أقل يقينًا فى أيامنا هذه.

سينتهى العالم، أو هكذا تؤكد نتائج علم الطبيعة الفلكية الحديثة بيقين مطلق. فذات يوم إن عاجلاً أو آجلاً سينفد من الشمس ما بها من هيدروچين ووقود شمسى أولى. وحينئذ ستتحول الشمس إلى ما يسميه العلماء عملاقا أحمر حيث يتمدد غلافها الجوى فائق الحرارة على مساحة مفتوحة ويشمل الكواكب القريبة ومنها كوكبنا ويحرق كل شىء حى على الأرض. وفى ذلك الوقت وعلى بعد خمسة مليارات سنة من الآن سينتهى التاريخ كما نعرفه الآن. ثم تتحول الشمس إلى قزم أبيض بارد ومعتم، ولكن سيكون البشر فنوا من الكون قبل ذلك بمدة طويلة.

والمعرفة اليقينية والدقيقة لتوقيت انتهاء العالم وكيفية انتهائه قد تكون شيئًا يصعب تصوره، كما أفضيت للصديق والزميل الكاتب ك.كول ذات يوم مشرق فى جنوب كاليفورنيا المشمس. فرد كول قائلا وهو يضحك: «يمكن أن أفيدك بما هو أفظع، وهو أن هذا قد يحدث قبل ذلك بكثير»[١٤٩].

بالحقيقة الساطعة التى هى بضاعة العلم، ذكرنى كول بقائمة كاملة من رؤى بلا إله تستحق أن يرتاع المرء منها. فإذا نجونا من الاستعمال العرَضى أو المتعمد لعشرات الآلاف من الأسلحة الكيماوية والبيولوچية والنووية المكدسة فى الترسانات الحربية حول العالم فقد نعانى النتائج المفجعة للأمراض الوبائية، أو الكوارث المناخية، أو التكدس السكانى ذى الأبعاد الرهيبة. وحتى إن أفلتنا من كل هذه الفواجع المحتملة، فقد يصطدم مذنب ضال بكوكبنا الصغير ويضع نهاية للحياة على الأرض، بينما تظل الشمس بكامل حيويتها.

والشؤم العلمى لا يغير شيئًا بالنسبة للمؤمنين الرؤيويين. فنهاية العالم سواء بالصدفة، أو عن طريق الخطأ، أو بكارثة، أو بالاحتراق الشمسى البطىء المؤكد تظل بالنسبة لهم تحقيقًا للنبوءات الإلهية التى وردت بسفر الرؤيا. فإذا كان الرب قادرًا فى رأيهم على خلق الأرض فهو قادر أيضًا على تدميرها سواء بالأسلحة النووية، أو بمرض معدٍ، أو بارتفاع حرارة الأرض، أو بنفاد الوقود الشمسى الذى يسمح للشمس أن تشرق. لذا فالنصوص المقدسة المسيحية تبدأ بسفر التكوين وتنتهى بسفر الرؤيا، وهذا ما يقصد «حمَل الرب» حين يقول: «أَنَا الأَلِفُ وَالْيَاءُ الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ»[١٥٩].

لكن تأمل آخر الزمان سواء بصورته الدينية أو العلمية أو بصورة تجمع كلتيهما معًا يطرح الخطر الأخلاقى الذى يواجه البشر دائمًا وهم يبحثون عن رؤيا تكشف لهم ما خفى. والنصوص الرؤيوية فى كل من اليهودية والمسيحية تغرينا بالانشغال بأوهام الانتقام والخلاص، بينما نرقب علامات وآيات تنبئ بنهاية العالم. وكثير من قراء هذه النصوص وسامعيها أخذوا على عاتقهم تنفيذ ما ينبغى أن يُترك لله لينفذه من انتقام وتعجيل بآخر الزمان. إلا أن أسمى فقرات الكتاب المقدس وأكثرها دعوة للسمو فى الرؤيتين اليهودية والمسيحية تحض على ترك البحث عن «الخفايا» وعلى تلبية الحاجات العاجلة للجوعى والمشردين والسجناء والمرضى هنا على الأرض[١٦٠].

وبعض المؤمنين ــ كما رأينا ــ على مدار تاريخ نهاية العالم مستعدون للصمود والنضال، سواء بالحق أو بالباطل من أجل فهم الكتاب المقدس. إلا أن بقيتنا لا يزالون يعتبرون أنفسهم مخيرين فى كيفية قراءة النصوص المقدسة أو فى قراءتها وعدم قراءتها

أصلاً. لكن الاختيار له عواقبه، وهذه طريقة من طرق فهم ما يقصده المؤلف التوراتى بما أورد فى سفر التثنية: «جَعَلْتُ قُدَّامَكَ الحَيَاةَ وَالمَوْتَ. البَرَكَةَ وَاللعْنَةَ. فَاخْتَرِ الحَيَاةَ»[١٥٢].

ومن قراء الكتاب المقدس من يحضهم سفر الرؤيا على قراءة هذه الكلمات كحكمٍ بالإعدام أصدره الرب على من يسيئون الاختيار. ويقرأ غيرهم الكلمات نفسها كتحدٍ لأن «تَصْنَعَ الْحَقَّ وَتُحِبَّ الرَّحْمَةَ وَتَسْلُكَ مُتَوَاضِعًا مَعَ إِلَهِكَ» كما ورد بسفر ميخا وأن يتجاهلوا الوعاظ الرؤيويين ويطيعوا الأنبياء التوراتيين الذين يحضونهم كأشعياء على «أَنْ تَكْسِرَ لِلْجَائِعِ خُبْزَكَ وَأَنْ تُدْخِلَ الْمَسَاكِينَ التَّائِهِينَ إِلَى بَيْتِكَ»[١٥٣]. ومسألة أن كلا النوعين من التعاليم ـ وغيرهما كثير أيضًا ـ يمكن استقاؤهما من السفر الواحد هى ما يجعل قراءة الكتاب المقدس تجربة تدفع للجنون.

والفكرة الرؤيوية حاليا تمارس تأثيرها على كثرة ممن لا يفتحون الكتاب المقدس أبدًا، والرب عندهم لم يعد لازمًا أو كافيًا لحل لغز توقيت نهاية العالم وكيفيتها. ولكن يبدو أننا جميعًا متفقون على شىء واحد هو أن الأرض نفسها وكل ما عليها من أحياء سيفنون يومًا ما إن عاجلاً، أو آجلاً سواء بيد الرب، أو بيد البشر، أو بفعل الطبيعة الكونية التى لا عقل لها. وفى النهاية نحن مضطرون لأن نحدد لأنفسنا كيف نجعل لحياتنا معنى ونحن ننتظر كما انتظرنا دائمًا أن ينتهى العالم فى الأوان المقدر له أن ينتهى فيه.